محمود تيمور

نداء المجهول



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٢٣٧٢

المطبعة النموذجية
٩ سكة الشابوري [illegible]

محمود تيمور

نداء المجهول

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٦٣٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

تصدير

محمود تيمور

[قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية تتويج جميع الانتاج القصصى باللغة الفصيحة لمحمود تيمور بك ، ومنحه جائزة القصة لسنة ١٩٤٧

وقد أعلن المجمع قراره هذا فى حفل أقامه يوم ٥ ابريل سنة ١٩٤٧ بدار الجمعية الجغرافية .

وكان المقرر هو حضرة صاحب العزة الاستاذ محمد فريد أبو حديد بك عضو المجمع وعميد معهد التربية للمعلمين ، فألقى بحثا جاء فيه ما يأتى]

... اختار المجمع اللغوى فى هذا العام من بين المبرزين فى القصة الأستاذ الكبير محمود بك تيمور ، فأهداه جائزة القصة إشارة منه إلى هذا المعنى ، ثم اعترافاً بما للأستاذ الكبير من أثر محمود فى فن القصة فى أدبنا الحديث .

فقد ألف الأستاذ محمود تيمور بك نحو خمسة وعشرين كتاباً فى القصص ، بعضها مجموعات من قصص قصيرة ، ويبلغ عددها اثنتى عشرة مجموعة ، وبعضها من قصص تمثيلية ويبلغ عددها عشرا ، وفيها فوق ذلك قصتان طويلتان لم نظهر سوى إحداهما ، وهى

« كليوباترة فى خان الخليلى » ، فأكثر جهود الأستاذ تيمور بك متجهة كما يظهر إلى نوعين من القصة : التمثيلية ، والقصة القصيرة .

وقد كانت القصة التمثيلية عنده أسلوبا فى الكتابة لا يقصد بها الاتجاه إلى التمثيل على المسارح ، فتمثيليات « تيمور » أقرب إلى أن تكون نوعاً آخر من القصة القصيرة .

والفرق بين النوعين أن التمثيلية تعتمد فى تصوير الأشخاص على محاورات أحاديثهم وحركتهم ، على حين أن القصة تعتمد على الأكثر فى تصوير الأشخاص على وصف هيئاتهم ووصف مواقفهم وما يبدو من أعمالهم .

ولم يخرج من تمثيليات « تيمور » على المسرح إلا عدد محدود ، وكان آخرها تمثيلية « حواء الخالدة » التى كان لها أكبر حظ من التوفيق . ولسنا هنا فى سبيل التعرض لطريقة « تيمور بك » فى فنه ، ولا للتحدث تفصيلا عن مذهبه فى القصة . وحسبنا أن نشير إلى أنه فى كل آثاره يتجه نحو إبراز الفكرة الواحدة يعرضها فى إطار محدود ، ومن ثم يمكن أن نقول : إن فن القصة القصيرة وما يتصل بها من المسرحيات القصيرة هو الجانب الذى خص به فنه إلى الآن . فهو فى أدبنا الحديث يشبه « تشيكوف » و « مكسيم جوركى » فى الأدب الروسى ، و « موباسان » فى الأدب الفرنسى .

ولعل هذا الشبه لم يكن عفوا ، فقد كتب الأستاذ « تيمور » فى مقدمة مجموعته القصصية « فرعون الصغير » متحدثا عن « موباسان » قال : « وتابعت قراءتى إياه فى شغف عظيم ، واتسعت مطالعاتى فيما بعد فى القصص الأوربى وتشعبت ، ولكنى حتى اليوم ما زلت محتفظاً لموباسان بالمكان الأول من نفسى » . . .

ثم قال : « وانتقلت بعد ذلك إلى القصص الروسى ، وقرأت « لتشيكوف » و « تورجنيف » ومن ماثلهما ، فرأيت تأثير « موباسان » واضحاً فى بعض إنتاجهم »

ولا يملك المتتبع لآثار « تيمور » إلا أن يرى الفرق واضحاً بين آثاره الأولى وآثاره الأخيرة .

ولعل مجموعة قصصه « فرعون الصغير » هى التى تمثل لنا روح فنه فى العصر الأول ، وهو يسير فيها — على عادته — يرسم الأشخاص فى براعة حتى يكاد القارئ يلمح فيهم بعض من عرف من جيرانه ، ولكن حماسة الشباب تبدو واضحة فى أسلوبه : ففيه يعلو صوته وتشتد حركته حتى لقد تبلغ ما يشبه العنف ، ثم هو يعمد أحيانا إلى شىء من المفاجأة ، وقد يظهر ما ينم عن الحنق أو الأحكام الخلقية

ولكن آثاره الأخيرة تنم عن تغير محسوس فى أسلوب التعبير ، فهو يرسم الأشخاص كما اعتاد أن يرسمهم فى براعة ، ولكنه يتحدث

هادئا مترفقا منخفض الصوت رقيق الحركة ، تحس فى كل عباراته أن قلبه مملوء عطفاً على الإنسان .

وإنا نستطيع أن نقول فى ثقة إنه قد بلغ فى بعض قصصه الأخيرة مرتبة عالية حق لنا أن نفاخر بها . فهو فى قصته « ولى الله » من مجموعة « شفاه غليظة » يصور أسمى جانب من القلب الإنسانى عندما يصور لنا أن هناك ماهو أعلى من عدالة القوانين . وفى قصة « كلب أسعد بك » يرسم لنا فى وداعة صورة اجتماع السمو والإسفاف فى الحطام البشرى ، وفى قصة « البديل » يصور لنا كيف تنطوى أسمى العواطف فى قلب الإنسان وإن كان فى عرف المجتمع الجامد موضعاً للزراية . ففى مثل هذه القصص يظهر فن « تيمور » رائعاً إذا قيس بأعلى آثار القصص فى الأدب العالمى .

وإذا كان الأستاذ « تيمور بك » قد اتجه فى بعض قصصه نحو مجاراته الكتابة باللغة الدارجة ، فالظاهر أنه قد وجد اللغة العربية الصحيحة أولى بفنه ، فنحا أخيراً فى أسلوبه منحى يجمع الصحة والسلامة والسهولة . ولعل هذا اعتراف منه بما تنتظر اللغه العربية من فنه .

فإذا أردنا أن نجمل ما تمتاز به طريقة الأستاذ « تيمور بك » فى قصصه ، كان لنا أن نقول على طريقة القدماء فى وصف الأدباء :

إنه يمتاز بثلاث :

أنه يرسم الأشخاص حتى إنك لتحس أنفاسهم وتلمح الحياة فى سهولة حركاتهم .

وأنه يكتب فى لغة سلسة لا تحجب شيئاً من معانيه .

وأن فنه يشيع فيه روح وديع من الإنسانية لاتحس معه حرارة فى وصف ، حتى ليكاد يحبب إليك الضعف الإنسانى .

إن « تيمور » إذ يتحدث عن الناس فى ضعفهم يتحدث عاطفاً كأنما هو يحبهم لما فيهم من العيوب ، ويصور سموهم معجبا بغير أن يجعل الإعجاب يخدعه عن الحب .

ولهذا نعتقد أنه أبرع ما يكون وأحلى إذا تحدث عن الناس كما يراهم فى لمحات قصيرة كأنه عابر طريق .

وهو فى ذلك يخدم الأدب من ناحيتين :

الأولى : أنه يشير إلى مثله الأعلى الإنسانى ، ويصوره لنا فى صوره البارعة .

والثانية : أنه يعرفنا بالجانب الذى يعرفه من مجتمعنا المصرى ، فهو معلم من معلمى هذا الجيل ، وهو عامل من العوامل القوية على تعريفنا بأنفسنا .

وإذا كان للقصص الرمزى والأسطورى فنه وفنانوه ، وإذا كان للقصص الطويل فنه وفنانوه ، وإذا كان للنقد الثائر فنه وفنانوه ؛

فإن فن « تيمور » هو القصصي القصير الواقعي الإنساني المماوء محبة للإنسان .

وإنه ليشرفني أن أنوب عن المجمع اللغوي في توجيه الثناء إليه ، راجياً له اطراد التوفيق والسمو ، سائلاالله أن يمده بروح من عنده ، حتى تتكون للعربية الشريفة ثروة من ثمار إنتاجه وإنتاج أنداده من المبرزين في فن القصة الذين تعتز بهم العروبة ؟

محمد فريد أبو حديد

١

سافرتُ إلى « لُبنانَ » ، سنة ١٩٠٨ ، لأروّحَ عن نفسى ، وأنعَمَ بفترة هدوء وبُعد عن صَخَب الحياة ، و « لبنان » وقتئذ تحت السيادة التركية . وقصدت إلى « بعنتاب »[1] وهى قرية صغيرة لا تحوى سوى ثلاثة منازلَ ، وفندق متواضع لا يسع أكثرَ من ثمانية أشخاص . وكانت المِنْطَقَةُ فى مَعْزِل ناء ، فأقرب بلدة إليها تبعد منها مَسِيرَ ساعتين على البغال .

استقر بى المقام فى « فندق الأمان » لصاحبه « الشيخ عاد أبو الجدم » ، ووجدت المكانَ وَفْقَ هواى : هدوء شامل ، وهواء جافّ بارد يبعث فى الجسم النشاط ، ومعيشة ساذَجة قريبة إلى الفطرة . فالفندق أشبه بمنزل ريفىّ ، غرس أمامه « الشيخ عاد » بعضاً من أشجار الصَّنَوْبَر والتفاح والعنب ، وأصنافاً من الأزاهر ، بطريقة غير منسقة ، ولكنها مقبولة .

---

(١) الأسماء الواردة فى هذه الرواية مصنوعة .

وكانت الجبال الشامخةُ تحيط بتلك البقعة الوادعة ، كأنها حرّاس يَخفرونها . والوادى البعيد منبسط أمام الفُندق بزروعه المختلفة الألوان . وعلى سفح الجبل قُطعانُ الماشية ترعى الحشائش الجافّة التى تنبت فى جُرأة عجيبة بين الصخور .

وكنا نُبيح لأنفسنا الظهورَ فى الفُندق ، وعلى المائدة نفسِها ، بالملابس التى تروقنا . فيرتدى كلٌ واحد منا ملابسه الوطنية المريحة ، وقد شجعنا على ذلك « الشيخ عاد » نفسُه ، إذْ تعوّد أن يظهر أمامنا بملابسه الشرقية البديعة : القفاطين الوطنية ذات الألوان الزاهية ، والجُبَب الحريرية الفضفاضة الموْشِيَّة بالقَصَب ، يغدو فيها ويَرُوح بِمِشيته المتزنة الهادئة . ووجهُه الصَّبِيح مشرقٌ دائمُ الابتسام ، فتَخَاله سلطاناً من سلاطين ألف ليلة . . .

والرجل حُلو الحديث ، غاية فى السماحة وكرم الضيافة . وقد تَعجَب لتلك القيمة الزهيدة التى يرضَى بها أجراً للمبيت والطعام ؛ مع أنه يقدم لك من المآكل ما يساوى أضعافها . ولكنك إذا علمت أنه يملك قُطعاناً من الغنم ، وأرضاً شاسعة للزراعة ، وبساتينَ مزدحمةً بالكروم ومختلفِ الفاكهة ، زال عجبك ، وأيقنتَ أن كرم الرجل سجيّة فيه متأصلة ، ساعده عليها

غناه . وما إدارة الفندق فى الحقّ إلا هوى نفسىٌّ لا يخلو من شذوذ .

واعتدنا نحن سكانَ الفندق ، أن نجتمعَ وهو معنا على مائدة واحدة ، والمائدة مستديرة تضم على سطحها العريض ما لذّ وطاب من ألوان المُشَهِّيَات التى اشتَهرَتْ بها الموائد اللُّبنانية . فإذا جاء الخَدَمُ بصِنْفٍ من الطعام ، وضعوه وَسْطَ المائدة ، وتولى الشيخ توزيعَه علينا . وكثيراً ما استغنينا عن الملاعق ، فاستبدلْنا بها أصابعنا ، نترك لها حرية العمل ، كما كان يفعل آباؤنا وأجدادنا منذ القدم . وكأن سذاجة الحياة التى تحيط بنا ، أوحت إلينا ذلك ، فجعلتنا نُزْرِى بتلك القيود البغيضة التى فرَضَتْها علينا مدنيتُنا الحاضرة . وفى أثناء الطعام ، يسامرنا « الشيخ عاد » بحديثه الطَّلِىّ ، ويقص علينا قِصَصَه الطريفة فى لهجة عذبة مُشْبَعَةٍ بحنان الأبوة . أما نحن فكنا نصغى محملقين فى وجهه ، يَغْمُرنا سحر عجيب ، فكأننا انقلبنا أطفالاً صغاراً يُنْصِتون إلى ما يُرْوَى لهم من بدائع الأساطير !

ومن غريب ما علمتُه من شأن « الشيخ عاد » أنه على علم بوسائل التَّطْبيب ، يمارسها على طريقته الخاصة ، باستخدام

الأعشاب وبعض العقاقير الحديثة . وقد شَهِدتُ بعضَ المرضى الفقراء من أهل النواحي القريبة ، يَقْدَمُون إليه ، يستشفُونَ على يديه . فما يردّ أحداً منهم ، بل يزوّدهم فوق فحصه عن علتهم بالدواء من صيدليّتِه المنزلية .

وكنا فى ذلك الوقت ستةَ أشخاص ، غير « الشيخ عاد » وخدم الفندق . ومن الطريف أن تضم أسرتُنا هذه سيدةً إنجليزية ، قيل : إنها مستشرقة ، وقيل : إنها متخصصة فى العلوم الطبيعية ، جاءت « لُبنان » تدرُس طبيعة أرضه ، ونباته وحيوانه . . . هى فى نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، هادئةُ القَسِمات ، ما تزال نَضْرَةُ الشباب تتخايل على وجهها الجميل .

وألفيتُ مرة ، فى الحديقة ، « حبيب » الخادم ، طروبا فى وِقْفَتِه ، يَرُشّ الزرع ويغنى . فقلت له وأنا أداعب مُسْبَحَتِى وأبتسم :

« ما رأيكَ فى صاحبتك الإنجليزية ؟ »

فحدق فىَّ لحظةً ، ثم اندفع يقهقه . وأخيراً قال لى :

« ما لك ومالها ؟ اترُكْها وشأنَها ، وإلا فالعاقبة وخيمة ! »

ثم التفت حوله فى حَذَر ، ودنا منى ، وهمس فى أذنى :

«ألست تَرْهَبُ الجواسيس؟»

فدَهِشت ، وتركت «حبيب» وقد اشتدّ اهتمامى بهذه السيدة .
وكان قد مضى علىّ بضعةُ أيام فى الفُندق ، تعرفتُ فى أثنائها بجميع النُّزلاء ، إلا أنى لم أهتم بغير هذه الإنجليزية وبرجل سورىّ مترهّل الجسم ، له رقبة مجعّدة ناحلة كرقبة النَّسْر الهَرِم ، اسمه « كنعان » ، يَدَّعى أنه أستاذ للتاريخ فى دار الفنون بـ « أستانبول » . . . أراه دائماً فى الحديقة ، حيث يفترش العُشْبَ الأخضر ، ويتوسد حُزْمَةً من الهشيم ، ويمضى يدخّن «النارجيلة» فى اطمئنان . وكثيراً ما تغاضيتُ عن مبالغاته وأكاذيبه يُنمق سردها تنميقاً يُكْسِبها مظهرَ الحقيقة .

أما السيدة الإنجليزية « مس إيڤانس » فقليلة الكلام ، مُحِبة للعُزْلة ، لا تباذِلُنا فى فترة الأكل إلا بضع كلمات بلغة بين الفصحى والعامية ، تنطقها فى شىء من الصعوبة . ولكنها تُنْصِت لحديثنا أىّ إنصات ، ولاسيما إذا تحدث « الشيخ عاد » ، فأيقنتُ أنها تفهم العربية جيداً ، بيد أنها لا تحسن التلفُّظَ بها فى يُسْر .

ولاحظت أنها تخرج من الفندق كثيراً ، وتتغيّب طويلا وربما قضت النهار كله فى الخارج ، لاتعود إلا بعد مَغْرِب الشمس فسألتُ « الشيخ عاد » :

« أين تكون هذه السيدة حين تغيب ؟ »

فقال لى وهو يبتسم ابتسامته الهادئة :

« ربما كانت تَدْرُس طبيعة الجبال ! »

وكانت إذا آثَرَتِ المُكْثَ فى الفندق ، جلستْ على مقعد مُرِيح فى طرف الحديقة البعيد ، وفى يدها كتاب تطالع فيه .

وكثيراً ما رأيتُها تقضى الساعاتِ الطوالَ على مقعدها ، تنطوى نظراتُها على عزم ونشاط وإرادة ، تخالطها وداعة مُحبَّبة . والكتاب ملقًى بجوارها لا تنظر فيه ، وهى تحدق بعينيها الزرقاوَيْن الحالمتَيْن فى الوادى البعيد الممتدّ تحت قدميها ، أو فى الجبال الشامخة المحيطةِ بها ، وقد أشرق وجهها بنور عجيب ، وراحة نفسية شاملة .

* * *

ومرةً كنتُ أتنزه فى الحديقة ، تحت ظلال الصنَوْبَر ، فرأيت « مس إيفانس » قاصدة إلى ركنها البعيد ، متأبطة بضعَ صحف ، وورقةً كبيرة مُبَطَّنَةً بالنسيج ، ملفوفةً على شكل الأُسطوانة ، فما شككتُ أنها « خريطة » من « الخرائط » . وجعلتْ تجذب اليها مقعدها الطويل ، فرأيت نفسى قد اندفعت

نحوها . . . ولما دنوت منها سلمت عليها منحنياً ، وقلت لها الإنجليزية :

« أأستطيع أن أساعدك ياسيدتى فى نقل هذا الكرسىّ ؟ »

فابتسمتْ فى لطف ، وقالت :

« أشكر لك جدًّا ، ياسيدى . لا موجِبَ مطلقاً لأن تتْعِبَ نفسك ! »

ولكنى أخذتُ المقعدَ منها ، وحملته وأنا أبتسم . وسرت إياها ، ثم قلت :

أتُعْجبكِ هذه البقعة ؟

— إنها من أجمل المناطق التى رَأيتها فى أسفارى !

— والفندق . . . أتَجِدينَ فيه راحتك ؟

— كل ما هو فطرىّ ساذَج أجد فيه راحتى المنشودة . . . وأنتَ ، أمسرورٌ من إقامتك هنا؟

— كل السرور !

— وهل تمكث طويلا ؟

بضعة أسابيع . . . وأنت ؟

— قد أمكث حتى يغلقَ الفندقُ أبوابه . . . إن لى مهمة أريد قضاءها ، ولا أدرى كم تتطلب من الوقت !

وسقطتْ من يدها عفواً حزمة الصحف ، فانحنيت عليها وجمعتها لها ، فإذا بها من الصحف العربية . فنظرت إليها مستطلعاً ، فابتسمتْ وقالت :

لى شَغَف بلغتكم ، وقد استطعتُ بعد دراسةِ بضعةِ أشهر أن أقرأها . . .

— وكيف تجدينها ؟

— صعبة ، ولكنها موسيقية ساحرة !

وابتسمتْ ، فابتسمتُ أنا أيضاً .

وكنا قد وصلنا إلى ركنها المختار، فأنزلتُ الكرسىّ، وأعددته لها ، وأحسست رغبةً تدفعنى لأن أطيل الحديث معها . ولكنى خشيت أن أعكر عليها صفو وحدتها ، فانحنيتُ أمامها أحييها . وفيما أنا عائد أدراجى وجدتها تبسط الورقة المبطنة بالنسيج أمامها ، فاسترقتُ النظرَ إليها ، فإذا بها « خريطة » لبعض الجبال ، عليها بعض العلامات بألوان مختلفة . ورأيت « مس إيڤانس » قد انحنت عليها تَتَفَحَّصُها وتدرس خطَطَها بانتباه . . .

وانقضى يومان لم أر فيهما « مس إيفانس » إلا لِمَاما ، ولم تسنح لى الفرصة أن أبادلها الحديث . وفى اليوم الثالث لقيتها فى الحديقة ، وهى تجر مقعدها الطويل ، ذاهبةً به إلى ركنها المنعزل المشرف على الوادى . فأسرعتُ إليها ، ونُبْتُ عنها فى حمل المقعد ، فنظرتْ إلىَّ شاكرة ، فقلت لها :

لمْ تشاركينا فى الطعام طَوَالَ يومين . أرجو ألاَّ يكونَ بك بأس . . .

— أشكر لك . لقد كنتُ فى نزهة جبلية !

— وحدك ؟

— أجل ، وحدى ، ولكننى قد أعتمد فى بعض الأحيان على إرشاد دليل . إننى مغرمة بمثل هذه النزهة الفردية !

وسرنا وقتاً صامتَين ، وأنا شديد الرغبة فى متابعة حديثها معى ، لعلى أكشف شيئاً من غوامض أسرارها .

. . . ولما وصلنا إلى مكانها المختار ، بسطتُ لها مقعدها . فقالت لى وهى تتهيَّأ للجلوس :

« ألا تظنّ أن فى العزلة واجتنابِ المجتمع مَنجاةً من شرور كثيرة ؟ »

فسُررْتُ من سؤالها ، إذْ تبينتُ فيه الرغبةَ فى مجاذبتى أطرافَ الحديث . فقلت :

نعم . لا بأس بالعزلة المُوَقَّتَة ، يفزَعُ إليها المرءُ بين حين وحين .

— والعزلةُ الدائمة ؟

— إنها تَبَتُّلٌ ياسيدى ، والتبتلُ لا يطاق !

وجلستْ على المقعد متمدّدة ، فظهرت معالمُ جسمها الفاتن . وحدقتْ فى السماء بعينيها الصافيتَيْ الزرقة ، اللتين تكشفان عن عراقةِ مَنْبِت ، وسلامةِ قلب . وقالت :

« إن التبتلَ يُروِّضُ نفوسنا ، فتنقشعُ عنها غِشاوَتُها ، ومِنْ ثَمَّ نستطيع أن نرى الوجودَ على حقيقته ! »

فأسندتُ ظهرى إلى ساقِ صَنَوْبَرة عتيقة ، وعقدتُ ساعِدَىَّ بِصَدْرِى . وقلت :

« وماذا يَهُمُّنى من معرفة هذا الوجود ؟ حسبى أنى أعيش فيه ! »

فرنتْ إلىّ ، وقالت فى شىء من الاهتياج :

إذا فهمنا الوجودَ على حقيقته ، اتصلنا بالسعادة الدائمة !

— إن السعادة ياسيدتى حولنا ، غيرُ بعيـــدة المنال منا ، فلِمَ هذا الطريقُ الوَعْر ؟

— إن السعادة التى تطلبها أنت وغيرك من طلاّب الدنيا ، هى سعادةٌ رخيصة تافهة !

— صدّقينى ، ياسيدتى ، ليس فى الكون إلا سعادةٌ واحدةَ !

فقاطعتنى ، غيرَ مَعْنيّةٍ بإجابتى ، وقالت :

« لقد كنتُ مثلكم ، أسعى للاستمتاع بتلك الزخارف البرّاقة ، حتى تكشّفَ لى المجتمعُ عن حقيقته ، وبان لى زَيْفُه وبهتانُه . لقد وثقتُ بدنياكم هذه ، فأوْدَعْتها أعزّ ما أملك ، أودعتُها قلبى ، ولكنها رَدَّتْ إلىّ هذا القلب مطعوناً . . . إنى أكره دنياكم . . . أكرهها ! »

وأخفتْ رأسَها بين يديها ، ثم إذا هى تبكى . فوقفتُ أمامها حائراً جزعاً ، وقد توزّعنى الألم . . وسَرْعانَ ماأخذتْ تهدّئ من روْعها ، فكفكفتْ عبرتها ، وهى تقول :

« إنى آسفة . . . آسفة جدًّا على مابَدَرَ منى ! »

فقلت متلعثماً :

لا موجبَ للأسف مطلقاً . . . إنما . . . أأكونُ قد أسأتُ إليكِ على غير قصد ؟

— كلا . . . كلا !

وابتسمتْ ، فَبَهَرَتني ابتسامتُها : لقد تجمعَتْ فيها روعةُ الأحزان فى أنبل معانيها !... فوقفتُ فترةً صامتاً أحدق فيها ، ثم أقبلت عليها فى تمهُّل ، وانحنيتُ على يدها ، فقبلتُها قبلةً رفيقة ، بثَثْتُها مايكنُّه لها قلبى من إجلال . . .

وتركتُ المكانَ على الأثر .

* * *

قضيتُ اليوم بأكمله ، أفكر فى ماوقع لى مع « مس إيڤانس » وأنا شديد التألمُ لحالتها ، إذْ وَضَح لى أنها تَنُوءُ بحزن دفين ، وتتعثّر بخيبة فى آمالها ، ولما تزلْ فى اكتمال الشباب .

وانصرم اليوم التالى ، فلم أجسر على التحدث إليها ، واقتصرتُ على تحيتها بيدى ، أو الإيماء إليها برأسى ، فكانت تردّ التحية بابتسامة حُلوة .

وفى اليوم الثالث أطلتُ إقامتى فى الحديقة عامداً ، فلما رأيتُها مقبلةً ، ذهبتُ اليها وحييتُها ، ثم قلت :

إن الجوّ اليوم حارّ . . .

ـــ أليس هذا عجيباً مع أننا على ارتفاع ألفى متر ؟

وصمتتْ لحظة ، ثم قالت :

لقد بحثتُ عنكَ أمسِ . . .

ـــ تقصدِينَنى ؟

فابتسمتْ ، وقالت :

نعم ، أنتَ !

واتجهتْ نحو مقعدها الطويل ، فأسرعتُ إليه وحملته . وسرت وإياها فى الطريق الضيق الملتوى ، المظلل بشجر الْجَوْز ، المُفضى إلى ركنها المعهود . وأنا مُرْهفٌ سمعى ، أنتظر حديثها بصبرٍ ذاهب . ولكنها لم تتكلم ، فَظَلِلتُ صامتاً . .

ولما وصلنا ، وجعلتُ أهيّئُ لها المقعد ، تقدمت نحوى ، وأخذتْ بيدى ، وقالت فى لهجة مؤثّرة :

« فلنكن صديقَينْ ! »

فقلت متحمّساً :

« سيدتى . . . »

واحتبس القولُ فى فمى ، فلم أزدْ حرفاً . . . ولبثنا صامتيْن وقتاً ، وقد تمددت « مس إيڤانس » على المقعد ، وانصرفتْ

تنظُر إلى السماء . وجلستُ أنا على كُومَة من الهشيم بجوارها .
وبعد حين سمعتها تتكلم ، وهى ما تزال إلى السماء ناظرة :
« ولكن لاتنسَ ياصاحبي أمراً واحداً . . . »
فقلت بلهفة :
وما هو ؟
— أننى امرأةٌ بلا قلب !
فضيت أرنُو إليها حائراً ، ثم تناولتُ يَدَها فى سكون ،
وجعلت ألاطفها. وقلت ، وأنا أبتسم ابتسامةً عليها مسْحة الخيبة ،
ولكنها مفعمةٌ بالإخلاص :
ثِقِى أننى سأحترمُ لك هـذا الشعور . . . اعتمدى على
صداقتى !
— شكراً . . .
وأسبلتْ جفنيها ، كأنها تستدنى النعاس . ومكثت أنعم
النظر فى وجهها الوسيم ، الصافى البشرة ، وأنا أناجى نفسى :
ماذا تخفى هـذه الصفحةُ الهادئةُ تحتها من تيَّارات عاصفة
جارفة ؟ . . .
ثم نكستُ رأسى ، وجعلت أنبُشُ الأرضَ بعود يابس .

ووقع نظرى على كتاب « مس إيفانس » ملقىً بجانب مقعدها ، ولم أكن قد انتبهت لوجوده . فتناولته ، فإذا به يبحث فى الفلسفة الصوفية . وطفقت أقلِّبُ صفحاته ، ثم استهوانى بحث من أبحاثه ، فانطلقت أقرؤه . وما كدت أنتهى منه ، حتى ابتدرتنى « مس إيفانس » تقول :

إنه كتاب لايوافق أميالك !

— ولكن موضوعه طريف شائق . . .

— أتراه كذلك حقا ؟

— إنه يضطرُّ القارئَ إلى التفكير فى مسائل قلَّما تسنح لفكره .

ثم صمتُّ فترةً ، وأنا أعبث بالعود فى يدى . وتابعت قولى :

« إننا فى الواقع لايمكننا أن نصلَ إلى فهم هـــذا الوجود بالأقيسة المادِّيَّة وحدَها ، فيجب أن نتجردَ عما هو عالق بنا من . . . »

فراحت « مس إيفانس » تضحك . . . فقلت على الأثر :

أتظنينَنى غيرَ مخلص فى قولى ؟

— أرجو أن تكونَ مخلصاً !

فابتسمتُ ، وقلت :

إن الصوفية لتستهوينى حقًّا ، ولا سيما إذا أخذتُها عن أساتذةٍ مثلك !

— هذا غيرُ كاف ، ياسيدى . . . إن الصوفية تتطلب فداءً جسيما . وكبير على النفس أن ترضى بهذا الفداء الجسيم من تلقاءِ ذاتها .

— ولكن . . .

فتابعتْ قولها :

« قد تعترضُ المرءَ فى تاريخ حياته حادثة ، حادثةٌ واحدة ، تحوِّل خطَّةَ سيره ، وتحلق به فى جوٍّ جديد يَقسِره على تغيير نفسيَّته . . . ومن ثم يتهيَّأ لقبول الحقائق الصوفية بلا مكابَرةٍ ولا عناد » .

وطرق أسماعنا حفيفٌ فيما وراءنا من الأغصان . فالتفتنا معاً ، فإذا « حبيب » الخادم يتقدم من « مس إيفانس » ويقول لها :

لقد حضر الدليل ، فهل تأذنينَ بمقابلته ؟

— فليأتِ !

وغاب « حبيب » هُنَيْهةً ، ثم عاد ومعه رجل منبسطُ القامة

عريض الجوانب ، مكتنز العضلات ، له شارب غليظ ، كأنه مصنوع من الآبنوس ، ورقبة كأنها الجذع العتيق . . . ينظر إلينا نظرات حادة ، كأنه يزدرينا !

واقترب الرجلُ من « مس إيفانس » وحيّاها ، فأحسنت لقاءه ، ثم التفتتْ نحوى ، وقالت وهى تتلطّف فى بسمتها :

« أقدّم لك دليلى الذي أعتمد عليه فى ارتياد هذه المنطقة » .

ودنا الرجل منى ، وصافحنى فى شيء من التحفّظ ، وقال بصوت خشن ، وهو يفتل شاربه ، أو بالأحرى يداعبه مزهوّا :

« محسوبك مجاعص » ، ابن الجبل . . . أعرف هذه الجهة ومخابئها وطرقاتها كما أعرف أصابعَ يدى . . . يمكننى — صيفاً وشتاء — أن أسرىَ فى الليل كما أسير فى النهار ، لا تعوقنى ظلمة ، ولا رياح ، ولا لصوص ، ولا ضوارٍ ، ولا . . . »

وخشيتُ أن تمتد ثرثرته ، فسعلتُ مقاطعاً إياه . وقلت :

« تشرفنا يا سيد مجاعص . . . ! »

والتفتُّ إلى « مس إيفانس » فوجدتها تضحك فى صوت مكتوم ، وقالت لى :

« إنه كثير الفخر بنفسه ، ومظهره يدلّ على القسوة ، ولكنه

فى الحق طيبُ القلب . . . وعلى كل حال فهو رجل قد يُفيدنى فى رحلتى . . . »

— أىّ رحلة ؟

— رحلة سأقوم بها فى هذه المنطقة . . لكشف أثر ثمين .

— أثر ثمين ! . . . وهل تتغيبين طويلا ؟

— لا أدرى . . . ربما تغيبتُ أياماً معدودة . . . وربما . . .

ثم صمتت وهى تبتسم ابتسامةً غامضةً فيها شىء من الاستسلام للأقدار . فقلت لها :

ومن تصحبين ؟

— هذا الجاعص !

— وحده ؟

— نعم !

فحملقتُ فيها مدهوشاً ، فأتمت هى كلامها قائلة :

« إن المخاطر تستهوينى . . . وكلما عظمتْ أحسستُ رغبتى قد اشتدت فى التغلب عليها » .

وانبعث « مجاعص » يحدث « مس إيفانس » فى شأن البغال التى يريد انتقاءها للرحلة . وأفاض فى الحديث . فإذا به يلقى

محاضرة فى منافع البغل ، وما حبته الطبيعة من قوة بنية ، واستعداد لتحمُّل المشاقّ ، ومهارة فى اختراق شعاب الجبال وتسلق صخورها : ثم انعطف بعد فراغه من ذلك إلى تقسيم البغال وَفْق ألوانها : فهناك البغل الأغرّ ، والأصهب ، والأدهم . فالأول عنيد حَرُون ، والثانى طائش ولكنه لا يخلو من جبن ، والثالث . . .

وما إن وصل فى حديثه إلى هذا الثالث ، حتى رأيت « مس إيفانس » قد قامت وقالت له :

إنى واثقة بخبرتك ، فانتقِ لى ما يصلح لرحلتنا منها ، وأخبرنى بالثمن . ولا تنس الغرارات والخيام . . . أتريد قائمة مفصَّلة بما أطلب ؟

— ليست لى بها حاجة . . . إن القائمة فى رأسى ، لم يُنجِب « لبنان » رجلا أوسعَ منى خبرة ، ولا أقوى منى ذاكرة ، فاطمئنى من هذه الناحية . . . ألم أحدثك بما وقع لى مع السائح الأمريكى « مستر استانلى » ؟

فبادرت « مس إيفانس » بالإجابة ، قالت :

نعمَ ، لقد سبق أن حدثتنى فى هذا . . . والآن ، إلى اللقاء . .

— إلى اللقاء ، ياسيدى . لا تخشَىْ شيئاً ما دمتِ فى حِمَاىَ . اعتمدى على الله ثم علىّ . . .

وانحنى أمام « مس إيفانس » . ثم ما لبث أن دار على عَقِبَيْه فى الدَّرْب الملتوى .

وقلت لـ « مس إيفانس » وأنا ما زلت جالساً على كُومَة الهشيم :

لا أدرى ما الذى يحملكِ على اصطحابِ مثل هذا الجلاّد ؟ ألا تخشَيْنَه ؟

— لا أخشى أحداً من سكان هذا الجبل . . . إنى قد خَبَرْت طبائعهم ، فإذا هم من أسلم الناس طَوِيَّةً . هؤلاء يا صديقى يعيشون على الفِطْرة ، وقد حبتهم حياةُ الجبل أنبلَ الخِصال وأشرفَها . . .

— وهذه الرحلة ، وذلك الأثر الثمين . . . ؟

— إنها سلوة أدفع بها مَلَلَ الحياة !

وجاء فى ذلك الوقت « حبيب » يحمل البريد ، فأعطى « مس إيفانس » رسالة ، ثم ناولنى لفيفةً تحمل طابَعَ بريد « مصر » ، وهو يقول مبتسماً :

أظنك الآن ، ياسيدى ، مرتاحَ الخاطر لوصول « الرِّزْمَة» لقد سألتنى عنها كثيراً .

— لقد تأخر وصولها .

— لا تنس ، يا سيدى ، أن تحتفظَ لى بالصحف المصرية بعد مطالعتها .

— بكل سرور .

وكانت « مس إيڤانس » قد فضَّتْ رسالتها ، فأخذتْ تتلوها . ووجدتُ وجهها قد أشرق ، وعينيها تلمعان . وما إنْ أتمت قراءتها حتى قالت :

« إنهم حاضرون . . . هذا بديع ! »

ونظرت إلىّ ، وقالت :

المعذرة ، إذ أتركك الآن . . . إلى اللقاء »

— إلى اللقاء ، يا سيدتى . . . .

والتفتُّ نحو « حبيب » ، وقلت :

« من هم الذين سيحضرون ؟ »

فمطّ الرجل شفتيه ، وقال :

« علمى علمك يا سيدى ! »

ورأيت طرفَ الرسالةِ الممزقَ على خطوةٍ منى ، فأخذته ، وألقيتُ عليه نظرة ، فإذا هو يحمل خاتَم البريدِ السوريّ . أما العنوان فسقيم الخط ، مكتوب بالإفرنجية .

وسمعت « حبيب » يقول وهو متظاهر بانهماكه فى قَشْر عود يابس :

« ما زلتُ يا سيدى ، أنصَح لك بالابتعـــاد عن هذه السيدة . . . إن . . . »

فقاطعته قائلا :

أشكر لكَ ، يا حبيب ، أشكر لك . . . والآن أرغب فى أن تذهب إلى المطبخ ، وتُوصِى لى بصَحْنٍ من الأرزّ المسلوق فى العَشَاء .

— أرُزّ مسلوق ؟

— بى شىء من عُسْر الهضم !

— إذاً عليك بحبَّة البركة . . .

— لا بأس ، جهّزها مع الأرُزّ . . . اذهب فأنفِذْ ما أمرتُكَ به .

وذهب « حبيب » وبقيت بمفردى أتطلع إلى الأفق البعيد ،

وأنا أقلب الفِكرَ فى هذه المُعَمَّيات : رحلة « مس إيڤانس » العجيبة ، وهذا الأثر الثمين المجهول ، والزُّوّار أصحابُ الرسالة .

. . وأخيراً هذا « المجاعص » الذى يحمل وجهَ قاتل !

ولا أدرى كم مضى علىَّ من الوقت وأنا على هــــذه الحال . ورأيتُ الشمس تنحدر الهُوَيْنَى فى الأفق ، وقد أخذ يبتلعها خِضَمّ الضباب القاتى ، المترامى بأطراف الوِدْيان ، الزاحفَ علينا مع طلائع الليل . ومرتْ علىَّ نَسْمَةٌ باردة اختلجَ على أثرها جسدى ، فقمتُ متباطئاً وأنا أجمع حولى ملابسى . . .

* * *

وفى الصباح ، عند ما أحضر « حبيب » الفَطُور ، وقعتْ عينُـه على رِزْمَةِ البريد التى وصلت إلىّ أمس من «مصر» ، وهى على حالها لم تُفَضّ ، فحدّقَ فىّ متعجباً ، فقلت :

« ليس عندى وقت لفضّها يا حبيب ! »

فهزّ رأسَـه موافقاً ، وعيناه تنطقان بضدّ ما أبْدَى . ولمحتُ فى جيبه مجلة « الاستقبال » المصرية المعروفة ، فقلت :

« أجديد هذا العدد أم قديم ؟ »

فتثاءب وتمطّى طويلا ، وقال وهو يأكل أطراف الكلمات من فَرْطِ كسله :

آخر عدد يا سيدى . . .

— ومن أين حصلتَ عليه ؟

فتضاحك ، وأسند جسمه المجهودَ إلى الحائط ، وقال :

— أخذته خُلْسَةً من «الأستاذ كنعان» !

— خُلسَة ؟

— لا حرج علىَّ فى ذلك ، يا سيدى . إن صحف الأستاذ تَظَلُّ فى لفائفها أبد الدهر . وعند ما يضيق بها ذَرْعُه يرصُّها تحت السرير ، لتكونَ طُعْمةَ الفيران . . . ألستُ أحقَّ من الفيران بها ؟

— طبعاً ياحبيب . لقد أحسنتَ صنعاً !

— ولكننى مع ذلك أُحبُّ «الأستاذ كنعان» ، وأعترف بأنه رجل عظيم !

— إنه عالم كبير . . .

— وهو كريم الأخلاق جداً . أتُصَدِّقُ أنه قضى ليله أمس فى صحبتى ، نحتسى العَرَق ، ونسمُر حتى السَّحَر ؟

وفَغَرَ فاه بغتةً عن تَثاؤُبَةٍ كريهة بصوت مُفَزِّع. وسمعنا صوتَ « الشيخ عاد » يناديه ، فحاول استعادةَ نشاطه ، وهرولَ خارجاً من الحجرة ، وهو يتعثر فى خطاه .

وخرجتُ إلى الشرفَة ، وأرسلتُ الطَّرْفَ حولى أتأمّلُ جمالَ الطبيعة فى ذلك الصباح البديع . وكان بعضُ الرعاة من البدو يضربونَ خيامَهم فى سفح الجبل البعيد . فأخذتُ منظارى ، وبقيتُ أراقبهم فى اهتمام . وأنا أغبطهم على حياتهم الساذَجَة السهلة الصادقة ، وتمنيت لو استطعت أن أحيا مثلَهم وقتاً من الزمن!

وتركتُ الشرفة ، وخرجت إلى الحديقة بخُطاً هَيِّنَة ، وقد اعتزمت أن أقضى شَطْراً من يومى فى الخَلاء ، أرتاد المِنطَقَةَ منفرداً ، كى أستمتعَ بلذةِ الوَحْدَةِ بين أحضان الطبيعة .

وبينا كنت أخترق الحديقة ، قابلتُ « الأستاذ كنعان » ، يحمل وِسادةً تحت إبْطه ، وهو يجر نفسه فى مشقة . . .

فتصافحنا ، وقال لى :

— إلى أين ؟

— بى رغبة فى ارتيادِ هذه المِنطقة التى تحيط بنا . أليس من العار أن أعيشَ فيها ، دون أن أعرفَ عنها شيئاً ؟ أتصدِّق أننى لم أفارقِ الفندقَ وحديقَتَه منذ قَدِمتُ ؟

فنظر إلىّ بعيونه المنتفخة المُطبَقَةِ الأجفان ، وانفرجتْ أشداقه المترهلةُ بقوله — وهو يحاول نَصْبَ قامته — :

لقد أحسنتَ صنعاً ، يا ولدى ، بتدارُكِ هذا النقص . . . إنك لو علمتَ ماذا تحوى هذه المِنْطَقةُ من كنوز طبيعية نادرة ، لاستحوَذَتْ عليك الدهشة والتعجُّب !

— أقُمتَ فيها بأبحاث علمية يا أستاذ ؟

— إنك لو سألتَ حَصْبَاءَ هذا الوادى ، واستجوبْتَ صخورَ ذلك الجبل ، لروتْ لك ما عانيتُ من مشقة فى بحثى واستقصائى . أنت تجهل بلا ريب أنى أُعِدُّ محاضرةً فى طبقات أرض هذه المِنطَقة ، وأطوارها فى التاريخ . . .

— بحث ممتع بلا ريب !

— ولكنه متعب يا ولدى ! أتصدِّقُ أنى قضيتُ ليلةَ أمسِ — لم يَغتَمِضْ لى جَفْن — وأنا منكبٌّ على أوراقى وكتبى ، والقلم لم يبرَحْ يدى لحظة ؟

— كان الله فى العون !

— والآنَ أنا فى حاجة إلى التمدُّد قليلا فى الحديقة . أليس لأبداننا علينا حق ؟

— دون شك يا أستاذ . . . ولماذا تركتَ حجرتَك ؟

— إنها بجوار المطبخ ، فالدَّق لا ينقطع فى ليل ولا نهار .

وظهر بيننا « الشيخ عاد » بغتة ، وسمعناه يقول ، وحبَّاتُ السُّبحَة تتنقَّل بين أصابعه :

« ستنعَم يا أستاذُ ، من الغد ، بنوم هَنِيّ . لقد أمرتُ بنقل المطبخ إلى مكان بعيد . . . »

فقلتُ :

« حقًّا إن الأستاذَ لا ينال حظَّه من هادئ النوم ، مع أنه فى حاجة إلى الراحة . إنه دائم التجوَال فى المِنْطَقَةِ المحيطة بنا باحثاً منقِّباً ، يدرُس طبيعة الأحجار » .

فقال « الأستاذ كنعان » موجهاً كلامَه إلىّ :

« أحسَبك سوف تحذُو حَذْوِى » .

فالتفتَ إلىّ « الشيخ عاد » وقال :

« ماذا ؟ ألكَ أنت أيضاً شَغَفٌ بهذا العلم ؟ »

فقص « الأستاذ كنعان » على « الشيخ عاد » رغبتى فى ارتياد هذه المِنْطَقة . فقال الشيخ :

« كلكم هذا الرجل ... . غير أن « مس إيفانس »
تفوقكم فى هذا الشغف ، ولها غرام جنونى بالكشف عن
الآثار المجهولة » .

فنظرت إليه متسائلا ، فروى لى كيف أنها كلفته مساعدتها
فى الكشف عن أثر قديم ، يقال إنه قائم خلف هذه الجبال .

* * *

وتركت « الأستاذ كنعان » يهنأ بنومه اللذيذ ، وخرجت
من الفندق ، ووقفت قليلا أرسم خطة السير . وتلفت أحاول
تحديد الأمكنة ، ونور الشمس يسطع بشدة فى ذلك الفضاء
الفسيح . . . فدفعت بقدمى ، وسرت أضرب فى فلوات هذه
البقعة الجرداء ، على غير هدى ووجدتنى أسائل نفسى : ترى
هل أقابلها ؟ . . . وسرت ، ثم سرت ، والسؤال لا يفتأ
يتردد فى خاطرى . . . أتكون قد نصبت خيمتها اليوم
بالقرب من مضرب هؤلاء الرعاة فى ذلك المكان القصى ؟
وبعد لأى وصلت إلى هنالك ، وجبت الناحية ، فما تركت
موضعاً لم أزره ، وماوقع بصرى إلا على هؤلاء الرعاة المتقشفين
بوجوههم الطويلة المشدودة البشرة ، وحولهم أغنامهم الهزيلة «

وكلابهمّ الضامرَة . وقد تجمَّع القوم إلىّ ، يرحّبون بى ويبالغون فى إكرامى .

واتجهت مرةً صَوبَ الشَمال ، ومرةً نحو الشرق ، وثالثةً إلى الجنوب ، وهلمّ جرًّا ، حتى أحسستُ قدَمىَّ لا تستطيعان حملى . فأخذتُ سَمْـتى أخيراً إلى الفندق ، وقصدتُ من فورى إلى الحديقة ، وذهبت حيث « الأستاذ كنعان » ، فوجدته يَغُـطُّ فى النوم . فاخترتُ مكاناً غيرَ بعيد منه ، وارفَ الظلّ غزيرَ العُشب ، فتمددتُ عليه ، ورُحتُ فى سُبات .

* * *

ولما حان وقت الغَـداء ، جاء « حبيب » فأيقظَنا . . . ولم تشاركنا « مس إيفانس » فى الطعام . وبعد أن انتهينا من الأكل ، ترامىتُ على مقعد مُريح ، وانطلقتُ أدخن وأتناول القهوة . وخرج الجميع فلم يبق فى الحجرة إلا أنا و « حبيب » وكان ينظـفُ المائدة . ولضيق المكان فى الفندق كنا نتـخـذ حجرة الطعام بَهْواً للمسامرة والتدخين . وكان جيب « حبيب » منتفخاً بالصُّحُـف والمجلات . وسمعته يُفيضُ فى

حديث لا مُنْتَهَى له ، لم أعره اهتمامى ، إذ كنتُ مشغولا بالتفكير في بعضِ شأنى .

ولما انتهت مهمَّتُه ، ورأى منى إعراضاً ، تركنى فى الحجرة وخرج ، فمكثت وحدى أنعم بتدخين لفائفى . وفيما كنتُ على هذه الحال ، شهدتُ « مس إيفانس » تدخلُ الحجرة ، فوقفت على التوّ أحييها ، فقالت :

أخشى أن أكونَ قد قطعتُ عليك سبيلَ تفكيرك !

— لم أكن أفكِّر فى شىء بعيدٍ عنك !

— كيف ؟

— أصرح لكِ أننى كنت أفكر فى رحلتك ..

— أإلى هذا الحد تَهُمُّكَ هذه الرحلة ؟

— أعترف لكِ بأنى كثيراً مافكرتُ فيها ...

— وكيف تَراها ؟

— أراها مخاطَرةً تستوجبُ الحذَر .

فضحكت طويلاً ، وقالت :

« إنك تبالغ .... »

ثم جلستْ ، وأشعل كلٌّ منا لفافة ، وغمرَنا الصمتُ هُنَيْهَة . وأخيراً تكلمتْ « مس إيڤانس » وهى تنفُث دخانَ لفافتها فى تأنٍّ . وقالت :

لعلك تعجَبُ إذا أخبرتك بأنى صرفت أكثرَ من عام ، وأنا أشتغل بجمع المعلومات عن هذا الأثر الثمين الذى حدثتُكَ فى شأنه ، حتى استطعت أن أحققَ موضعَه . . .

— وكيف انتهى إليكِ خبر هذا الأثر الثمين ؟

— حضرتُ فى الصيف الماضى إلى « لبنان» أنشد العزلةَ فى هذه البقعة الساكنة ، فسمعتُ من بعضهم قصة عن « قصر مسحور » تسكُنُه الأشباح ، ينطوى عليه بطنُ الجبَل الذى يحيط بنا . فشُغِفت بهذه القصة . واعتزمتُ ارتيادَ هذه البقعة ، لاكتشافِ موضع القصر ، وإماطةِ اللثام عن سرِّه الخفىّ . . .

فقلت ، وأنا متحير :

أيكونُ هذا الأثرُ الثمين وقصرُك المسحورُ شيئاً واحداً ؟

— هو ذلك !

فصمتُّ حيناً ، وأنا أحدِّقُ فى وجه « مس إيڤانس » لأتثبتَ من صدق قولها . وقد خَطَرَ ببالى — أولَ وهلة — أنها

تهزأ بى ، فرأيت وجهها ينطقُ بصدقٍ وإخلاص . فقلت لها :

أتعتقدين إمكانَ رؤيةِ الأشباح ؟

— لم أر فى حياتى حتى الآن واحداً منها !

ومكثت تحدّقُ فى دُخان لفافتها ، وتقول :

« إنما قد . . . »

فقلت لها :

أواثقةٌ أنت من وجود هذا القصر؟ أخشى أن تكونَ القصة أسطورةً من الأساطير !

— كلا ، لقد تأكد لى وجودُه ، وهو قائم فى بقعة موحشة نأت عن العمران . . .

— وهل حدّثك فى شأنه شخص رآه بعينه ؟

وما كدت أُتِمُّ جملتى ، حتى قدِمَ علينا « حبيب » وقال لـ « مس إيفانس » :

« الثلاثة الزُّوَّار الذين تنتظرينهم قد حضروا يا سيدتى . . . »

فالتفت نحوى « مس إيفانس » وهى متهللةُ الوجه ، وقالت :

« إن هؤلاء الزوارَ يستطيعون الإجابة عن سؤالك ، يالَهُ منَ اتفاقٍ غريب ! »

وقالت لـ « حبيب » :

« أدْخِلْهم حالا ! »

وانثنَتْ إلىَّ تقول :

« لقد حضروا في الموعدِ الذي حدَّدوه لي في الرسالة . ألا ترى أنهم جديرون بالإعجاب ؟ »

وبعد قليل دخل الحجرةَ ثلاثةُ رجالٍ من العرب، لايختلفون في زيِّهم وسَحْنَتِهم عن رُعَاة الغنم . . . وأرسلتُ عيني فيهم ، فلم أستطع أن أتبيَّنَ فرقاً يُمَيِّز بعضَهم من بعض ، فكأنهم توائمُ . وأقبلوا علينا ، فحيَّوْنا أحسنَ تحية ، ووزعت « مس إيڤانس » عليهم اللفائف ، وأمرتْ لهم بالقهوة ، وبدأت تحدِّثُهم بعربيتها المُتَهَشِّمَةِ ، في لهجةٍ لطيفة . . .

وألقيتُ سؤالي عليهم ، فوجدتُ واحداً منهم قد نهض قائماً ، وتقدم من « مس إيڤانس » ووجهه يَفيضُ حَماساً ، وهو يقول :

« لقد كنتُ واحداً من عَشَرَةِ رجالٍ ، قاموا لكَشْفِ هذا القصر ! »

فقلتُ له :

وهل وصلتُم إليه ؟

— كذَنا ، ولـكننا لم نفعلْ !

— لَمـاذا ؟

— لقد منعتْنا شياطين القَـصر !

فتضاحكْتُ مقهقهاً، فدنا الرجلُ منى ، حتى لم يَعُدْ بينى و بينه إلاّ خطوةٌ واحدة ، وقال ، وقد اشتدت لمعةُ عينيْـه :

« أقسم لو رأيتَهـا وهى على ذِرْوة الجبل تلقى علينا الحجارةَ الغليظة ، لمـا بَدَرَتْ منك هذه الضِّحْكة ! »

فقلت مُحَـاجياً :

« وهل رأيتَها أنتَ بعينىْ رأسِك ، وهى تقذِفُ عليكمُ الحجارة ؟ »

فانتفض الرجل انتفاضةَ المحموم ، ودقَّ صدرَه بيدَيْـه . . . وقال :

« أوَتظنُّنى كاذباً ؟ »

وكان « حبيب » قد أتى بالقهوة ، فعاد الرجل إلى مجلسه . . . والتفتتْ إلىَّ « مس إيفانس » وقالت فى طُـمَـأْنينَـةٍ موفورة :

« إنهم لايكذبون . . . »

ثم سألتُـه فى تفاصيل ذلك الحادث ، فطَفِـقَ يقول :

« كان ذلك منذ خمسةٍ وعشرين عاماً ، وأنا فى أنـضرِ عمرى »

أرسلنا المتصرفُ مع بعض رجال الدَّرَكِ لنبحث عن هذا القصر ، وكان قد اتصلَ بعلمه أنه يَحْوِى كنوزاً . فانطلقنا فى شعابِ هذا الجبل الأغبر ، كأننا الذئابْ الجياعُ تبحث عن فريسة . وقضينا عَشَرَةَ أيام ، حتى كدنا نَهْلِكُ . وما إن شارفَتْ مهمتُنا تمامَها ، وأوْشَكْنا أن نصلَ إلى القصر ، حتى أحسسنا الجبلَ يَتزَلزَلُ ويتفكَّكُ حولَنا ، وسمعنا دَوِيّاً قاصفاً ، وانطلقَت الحجارة هاويةً علينا ، كأنها طَلقَات الرَّصَاص . وَصرَخَ أحدُنا : « الشياطين ترجُمُنا . . . الهرب ! الهرب ! »

فرفعتُ رأسى فإذا أشباح سودٌ هائلة يندلع من عيونها اللَّهَب ، تتضاحك فى بشاعة ، وترمينا بكُتَل الحجارة الضخمة . فكلما أراد الهربَ من هذه الكُتَل واحدٌ منا ، رمى بنفسه فى الهاوية ، فلا يصل إلى قاعها إلا محطَّماً . . . لقد قُضِيَ على زملائى كلِّهم فى لَحَظات معدودة ، ولم ينجُ أحدٌ غيرى . نجوتُ وأنا فى حالةٍ يَفْضُلنى فيها الميْتُ ! »

فقلت له :

وهل رأيتَ بنفسكَ القصرَ ؟

— أصدقُكَ القولَ . . . إنى لم أر شيئاً فى شكل قصر .

ولكنني أبصرتُ جزءاً من جبل به فجوات كالتي تكون عادةً في الجبال . وقد أشار إليها رئيسُ الدَّرَك وهو يقول :

« هذا هو القصر المسحور ! »

وهنا سألته « مس إيفانس » : هل يرضى أن يرافقها في رحلتها ؟ فاعتذر بكبرَ سنه وكثرةِ من يعولهم من أفراد أسرته . ولكنه وعدها أن يقدِّمَ لها كلَّ ماعنده من معلومات ذاتِ شأن .

وروى لنا ثاني الزوار حكايةَ شابٍّ استهوته قصة القصر المسحور ، فخرج منفرداً يطلُبُ كَشْفَه ، ولكنه لم يَعُدْ ، ولم يَسمع عنه أحد خبراً . فنظرتُ إلى « مس إيفانس » وقلتُ :

« على الرغم من كل ذلك تستهدفينَ للخطر ، وتُصرِّينَ على الذهاب لاكتشافه ! »

فابتسمتْ ابتسامة عريضةً ، وقالت :

« قلتُ لكَ إنني أهوَى المخاطر . . . أضف إلى ذلك أن اعتقادي وثيق في القضاء والقَدَر . . . »

ومع معارضتي لها ، ودهشتي لإصرارها ، كنت في صميم نفسي معجَباً بشجاعتها النادرة ، موافقاً على رحلتها الخطيرة ، وقلت لها :

إذا صحَّ وجودُ هذا القصر ، فسيكون من أكبر العجائب !

— وهذا ما يحفزنى لاكتشافه .

— هل وصلتَ إلى معرفة تاريخه ؟ فى أىّ العصور بُنِىَ ؟ ومن شيّده ؟

— لدىّ معلومات مُهوّشة فى هذه النقطة ، ولكن الشيخ وعدنى أن يأتىَ لى بالخبر اليقين . . .

* * *

وفى الغدِ شاركتنا « مس إيفانس » فى طعـــام الغَـداء .

وكان حديثنا على المائدة حديثاً مألوفاً ، لم يتعدَّ اعتدال الجوّ ، وطيبَ الفاكهة ، وجودةَ المياه . ولما انتهينا من الأكل ، دعانى « الشيخ عاد » لتنـاول القهوة فى حجرته الخاصة ، ودعا معى « مس إيفانس » و « الأستاذ كنعان » . وجلسنـا على الوسائد الأرضية المريحة ذات المساند الليِّـنة . وكانت حجرةً بديعة ، كلُّ ما فيها ينطق بذوق شرقى أصيل .

وأوصى « الشيخ عاد » بأن تجهز القهوة والنراجيل ، وهو يقول لنا :

« لدىّ طِباق عجمىّ فاخر ، لا مثيلَ له فى الشام كلها ! »

وأخرج سُبْحته ذات الحبات الحمرِ الكبيرة اللامعة ، وأخذ يداعبها بين أنامله هنيهة ، ثم قال فى صوت رفيق ، ولهجة رزينة

« حقاً يا « مس إيڤانس » إن حكايةَ قصرك المسحور أعجوبة الأعاجيب. كنت معتقداً قبل تكليفك إياىَ استقصاءَ خبره، أن قصته خرافةٌ من الخرافات الشائعة، فلم أعرْها اهتماماً مطلقاً، ولكنى الآن بعد أن بحثت الأمر جليًّا أجدُنى أمام أثر طريف له تاريخ عجيب! »

فأشرق وجه « مس إيڤانس » والتفتت إلىّ متسمة. وتكلم « الأستاذ كنعان » فقال :

« لقد درستُ آثارَ سوريّة جميعها، ومن بينها هذا القصر، وإنى لأدْهش كيف خفِىَ أمْره عليكم إلى هذا الحدّ! »

فابتسم الشيخ ابتسامة لطيفة، فيهـــا إشفاق ومداعبة، وقال :

« إذاً حدّثنا أنت ... إننا لفى شوقٍ عظيم لسماعِ ما عندك! »

وفى هذا الوقت جاء « حبيب » بالقهوة، ثم خرج ...
وعاد بعد وقت قصير يحمل النراجيل الأربعَ، ووضع أمام كلٍّ منا واحدةً منها، ثم مضى ...

وعمّ الصمت المكانَ فترةً من الزمن، ثم بدأت الحجرة

تتجاوب بقرقرة هادئة ، كأنها ضحكات مكتومة من كائنات غير منظورة ! . . . وأخـــذتْ تنعقد أمامنا وفوقَ رءوسنا سحُب رقيقة ، فتمتد وتغلظُ تارةً ، ويندمج بعضها فى بعض تارةً أخرى ، فتبدو لنا كأنها أشـــباح عجيبة تزدحم علينا ، لتصْغِيَ إلى ما نتحدّث به فى أمر هذا القصر المسحور !

ونَحّى « الأستاذ كنعان » فمه عن مَبْسِم النارجيلة ، وقال :

« كان يجدُر بكم أن تسألونى فى هذا الأثر العظيم . إنه من بقايا الرومان ، وعمارته بيزَنطيّة بحتة ، والذى شيّده الإمبراطور يونان . . . »

فقلت له :

« ولكننا ، يا أستاذ ، أمام قصر حديث ، بناه أحدُ شيوخ الجبل ! »

فزَوَى « الأستاذ كنعان » ما بين حاجبَيْه ، وتحركت شفتاه حركة إنكار ومعارضة ، وانهمك فى نارجيلته يستمع إلى قرقرتها . . .

ووصل « الشيخ عاد » ما انقطعَ من حديثهِ ، قال :

لقد بَنى هذا القصرَ رجلٌ يسمى « الشيخ بشير الصافى » .

كان شيخا من شيوخ الجبل المشهورين ، موطنهُ فى الجنوب . فليس هو من أبناء هذه الجهة . لذلك ظلّ تاريخه لنا نحن سكانَ الشمال محوطا بالأسرار . وكان الرجلُ عظيمَ السلطان على بنى قومه ، تؤازرُه عشائرُ شتى ، وله مع الدولة العثمانية مواقف مشهورة . . . وكان الولاة يرهبون جانبه ، ويجاملونه ما استطاعوا ، ويضمرونَ له الشرّ للإيقاع به عند إمكان الفرصة . ولكن فطنة الرجل وسعَةَ حيلته ، جعلته يخشى أن يَقلبَ له الدهرُ يوما ظَهرَ المِجَنّ ، فاختار مكاناً فى ناحيتنا الموحشة المنعزلة ، فى ركن يُخفيه بطنُ الجبل ، ويصعب الاهتداء إليه فشيَّد فيه قصراً محصَّنا ، اتخذَه ملجأ يعتصِمُ به هو ومن معه ، إذا اضطرهم الأمر إلى الاستخفاء . »

فسألته « مس إيفانس » :

وهل التجأ فعلا إلى هذا القصر ؟

— لا أدرى على وجه التحقيق .

وقلت :

« الغريب فى هذه المسألة أن يشيدَ شيخ مشهور من مشايخ هذا الجبل ، ذلك القصرَ الغريب ، ثم يَظلّ أمرُه خفيّة لا يكاد يعلم به أحد ! »

فقال « الشيخ عاد » :

« إن الأسرار تُحِيطُ بذلك القصر دائماً منذ بَدْئه . وهذا ما أراده صاحبه له . ففي الوقت الذى كان فيه يُبنَى — أو بالأحرى : يُنحت ، إذ أنه منقور فى صميم الجبل — لم يكن أحد من أبناء هذه الجهة يعلم سرَّ بنائه . وهكذا ظلت حقيقتُه لغزاً من الألغاز ، وأصبح عند بعض الناس خرافةً ليس له وجود ، وعند بعضٍ آخرين مكاناً تَعْمُرُهُ الشياطين ! »

فقال « الأستاذ كنعان » فى اهتمام :

« وهل الشياطين فيه حقّاً ؟ »

فابتسم « الشيخ عاد » وهو ينظر إلى « مس إيفانس » وقال :

« هذا ما ستحققه لنا مس إيفانس » !

وَجمْجَمَ « الأستاذ كنعان » وهو يرسل الدُّخان فى عَبَث :

« لم أسمعْ فى حياتى بـ « بشير الصافى » هذا مُشَيِّدِ القصر ، ولم أقرأ شيئاً يتعلَّقُ بحوادثه مع الدولة . »

فقال « الشيخ عاد » وهو يحرِّكُ حباتِ سُبْحَتِه مبتسما :

« ليس هذا ذنبَ الرجل يا أستاذ ! »

ثم استدرك على جملته ، فقال :

« لا تنسَ أن شخصية « الشيخ بشير » تكاد تكون من شخصيّات الأساطير ! »

وسألت « مس إيفانس » الشيخَ ، قائلةً :

ومن يمتلكُ القصرَ اليومَ ؟

— لا أحد !

— أليس للرجل ذُرِّيَّة ؟

— كان له حفيد ، انتهت حياته بفاجعة أليمة !

— كيف ؟ !

وحدَّقنا جميعاً بأبصارنا فى « الشيخ عاد » ، ورأيت « الأستاذ كنعان » يُنصِتُ إليه فى شَغَف ، على تظاهره بقِلّة الاكتراث. واعتدل الشيخ فى جِلْسَتِه متربّعاً ، وجَذَبَ نفَساً طويلا من النارجيلة ، فانبعث لمائها هدير عال ، كأنما هى أيضاً تطالبه أن يَرويَ لنا حكايةَ هذه الفاجعة !

قال الشيخ :

« قصة هذا الشاب الذى لَقِيَ حتْفَه ، وهو فى العشرين من عمره ، يرجع عهدها إلى ما قبل ثلاثين عاماً أو أبعد . كان اسمه « يوسف الصافى » ورث عن جدّه الشهامة والزعامة ،

كما وَرِثَ عنه ثروةَ جليلةَ القدر . ويؤكد الناسُ أنه لو هادَنَتْه المقادير حيناً لبزَغَ نجْمُه ، ولأصبح أميراً على هذا الجبل . ولكن . . . ولكنه الحب الذى كان مبعثَ نكبته ! لقد هام الشابُّ بفتاة من أسرة عريقة ، هام بها هُيَاماً جنونيًّا ، وبادلَتْه الفتاةُ الغرام، فأحبَّتْه حبَّ عبادة . وتناقل الناسُ أخبارَ حبِّهما العُذْرِيّ الرائعِ كما يتناقلونَ الأقاصيص ، وأصبح العاشقان بطلَيْن من أبطال الهوى ، كقيسِ بنِ المُلوَّحِ وليلاه ، وجميلٍ وبُثَيْنَتِه . ورفضَ الأبُ أن يزوج ابنتَه « يوسفَ الصافى » وتتابعت الأيام ، وأُعْلِنَت خِطْبَةُ الفتاةِ لشابٍّ آخر . . . وحلتْ أخيراً ليلةُ الزِّفاف . وبينما كانت العروسُ فى مِنَصَّتِها محفوفةً بأفراد أسرتها وصويحباتها تنتظرُ عَرُوسَها ، إذ ظهر « يوسفُ » أمامها ، لا يدرى أحد من أين جاء . . . يزعم ناس أن الأرض انشقتْ عنه ، ويزعم آخرون أن الجدارَ انصدَعَ فظهر منه . . . ولبث الناسُ فترةً فى ذهولهم مصعوقين من هذه المفاجأة . وما هى إلا أن أخرج « يوسف » من صدره غدَّارةَ كبيرة ، وَصوَّبَها الى الفتاة فأرداها قتيلا ! . . .

واستخفى من حيث أتى ، لا يعرف أحد كيف خرج ، وأىّ طريق سلك ؟ ! »

وصمت « الشيخ عاد » لحظةً ، أمر فى أثنائها « حبيب » بأن يغير لنا جمرَ النراجيل . واستأنف الشيخ قائلا :

« وبعد انقضاء أشهر على هذه الحادثة ، روى الناس أنهم وجدوا جثةَ « يوسفَ » مطروحةً بجوار جدول من الجداول ، وتحققوا أنه قتل نفسه برَصاصةٍ فى القلب ، وبموته انقرضت أسرة « الصافى » ، وانطوى مجدُها العظيم . . . » .

وسمعت « مس إيفانس » تقول :

والقصر ؟

— إن الحكومة لم تُعْنَ بأمره ، وقد تكون اهتمت بموضوعه وقتاً ما ، ثم أهملَتْه لخَطَرِ موقعه .

— وهل سكن « يوسف » القصرَ قبل وقوع الجريمة ؟

— يشاع أنه سكنه فترةً من الزمن ، وكان يُعِدُّهُ لقضاء شهر العسل فيه .

فغمغمتُ :

« بالغَرابةِ أطواره ! أيبعدُ قلعةً في وسط الجبال القاحلة لتكون مقرًّا لعروسه ؟ »

فقال « الشيخ عاد » :

« الجنون فنون ، ياسيدي ! »

وقالت « مس إيفانس » :

« ربما ضم هذا القصرُ آثاراً ووثائقَ تكشفُ السترَ عن بعض الخفايا في قصة العاشقَين ! »

فأجابها الشيخ :

« هذا محتمَل ياسيدتي . . . »

ولفّنا جميعاً صمتٌ مديد ، فليس من صوت في الحجرة سوى قرقرة الماء في جوف النراجيل ، وزفيرِ أنفاسنا نُرسلها من أفواهنا ممزوجة بالدخان المُعطَّر الشَّذِيّ .

وكانت الشمس قد آذنتْ بالمغيب ، فانعكس لونُ الشفق — الذي يغمر الأفُقَ البعيد — على نوافذِ الحجرة ، فتضرَّجتْ أركانها بلون أرْجُوَانِيٍّ فيه رَوْعَةٌ وسحر .

وخرج « الشيخ عاد » من صمته ، يقول لـ « مس إيفانس » :

متى تبدَئين رِحْلتَكِ ؟

ـ عقبَ انتهاء « مجاعص » من إعداد الدوابّ والمـؤُونـة....
أيضايقُـكِ أن يكونَ فى صحبتِـكِ شخصٌ مخلِـصٌ ، وربمـا أدَّى إليكِ بعضَ الخدمات ؟

فنظرتْ إليه مبتسمة ، وفَطِـنَـتْ إلى مايَرْمي إليه ، وقالت :
« إنى أرحب بكَ من أعماق قلبى ! »

وتنحنحت طويلا ، ثم قلت :
« لقد استهوتْنى قصةُ هذا القصر ، ويلوح لى أن . . . »

فقاطعتنى « مس إيفانس » وقالت وهى ما تزال تبتسم :
« ويسرنى أيضاً أن تَـنْـضَـمَّ الينا . . . »

ونظرنا نحن الثلاثةَ الى « الأستاذ كنعان » فألفيناه منهمكا يدخّن النارجيلة ، أو بالأحرى متظاهراً بالانهماك . . . فقال « الشيخ عاد » :

« أكبر ظنى أن الأستاذ يرحب بصحبتنا . . . ستجد ، ياأستاذ ، فى هذا القصر مادةً تاريخيَّـةً طليَّـةً تزيدُ بهـا أبحاثَـكَ الشائقة ! »

ورفع الأستاذ وجهَـه المتجَـهِّـمَ نحونا ، وابتسم ابتسامةً مغتَصَبة ، وقال فى شىء من الاضطراب :

« هذه رِحْلةٌ تتفق وأمِيالى كلَّ اتفاق ! »

* * *

ووكلتُ « مس إيفانس » أمرَ قيادة البَعْثَة ، وإعداد مُعدَّاتها إلى « الشيخ عاد » . . . وقد قررْنا ألاَّ يكونَ لنا تابعٌ سوى « مجاعص » ، وألا نأخذَ من الدوابِّ غيرَ بغلتين ، واحدة لحمل الخيمة والمَئُونة ، والأخرى نتناوبُ ركوبَها . . .

٢

استيقظتُ في اليوم المحدود مبكّراً ، في الخامسة ، وكان يغمُرُني انشراح عظيم ، وخرجت الى الشُّرفة أستنشق نسيمَ الصباح الباردَ في شَغَف ، وأدور بعيني فيما حولي أستمتعُ بجمال الطبيعة الخلاب . ثم عدت أتناول فَطُوري من الفاكهة واللبن الرائب .

وعند ما حلّت السادسة ، كنتُ في وسط الحديقة منتظراً الرّفاق ، وبجواري حُزمةٌ تحوي الضروريّ من ملابسي . ولم يَطُل انتظاري ، فقد ظهر « الشيخ عاد » و « مس إيڤانس » . . . وكان « الشيخ عاد » يرتدي ثياباً عربيةً جميلة : كوفيّةً زاهية اللون حولها عقال مُقصّب ، وسروالاً من الجوخ الأسود مطرّزاً بوَشْيٍ متناسق ، وعَبَاءَة من الحرير ناصعةَ البياض . . . أما « مس إيڤانس » فقد ارتدت صدَارَ صوفٍ « بول أوفر » وسروالاً مما يُلبَسُ لركوب الخيل ، وقبعةً من « الفلين »

عريضةً بيضاء ؛ وحذاء عسكريًّا يصل حتى الرُّكبة . فكانت بديعةً فى ذلك اللبُوس الرياضىّ، وازدادت فى عينى وسامة وحسناً .

أما أنا فكانت ملابسى فى جملتها عادية ، ماعدا القبعةُ العريضة .

وتصافحنا ، ونحن مشرقُو الوجه ، كأننا فى يوم عيد . .

وقلت لـ « الشيخ عاد » :

هل أُعدَّ كلُّ شىء ؟

— كلُّ شىء مُعَدّ .

— والأستاذ كنعان ؟

— لم يظهر بعدُ .

وقالت « مس إيڤانس » :

« نذهب إليه . . . »

وقصدنا إلى حجرة « الأستاذ كنعان » ، فراعنا صوتٌ غريب يشيع فى أرجائها ، فأنصتنا ، فإذا به غطيطٌ مزعِج ، يعلو ويهبِط فى نغمات شاذّة ، وفى حشرجةٍ سقيمة . فتقدم « الشيخ عاد » ودق الباب ، فلم يجبْه إلا الغطيط ، وتابع دقه ، والنائم على حاله يملأُ الجوّ بصوته الكريه وأنفاسه الجافة ...

واخيراً تقدمتُ و « مس إيفانس » نعاونُ الشيخَ فى دقِّه الباب ... ولـكن لا حياةَ لمن تنادى !

وقامت بى رغبة صادقةٌ فى استطلاع سرِّ هذا الغطيط غيرِ الطبيعىِّ . فاستأذنتُ صديقتى وصديقى ، وجعلتُ أنظر من ثـَقـْبِ المفتاح ، فإذا بى أرى « الأستاذ كنعان » جالساً على سريره يتمـَّيزُ غيظاً ، وهو منهمك فى إرسال غطيطه العجيب ، يوهمنا به أنه مستغرق فى نوم عميق . فرفعتُ رأسى ، وأشرت لـ « مس إيفانس » أن تنظـُر ، ففعلتْ ، ثم أشارت هى إلى « الشيخ عاد » أن ينظر ، ففعل . . . وتبادلنا النظراتِ المصحوبةَ بالابتسامات ، وتركنا المكان ، نمشى على أطراف الأصابع .

* * *

كان ينتظرنا — عند مَدْخَل الفندق — « مجاعص » بالبغلتـَيْن . وقد لاحظتُ أنه اعتـَنى بفـَتـْل شاربه ، وإكساب وجهه مظاهرَ العظمة الـكاذبة . وبعد أن تفقد « الشيخ عاد » لوازم الرِّحْلة ، أصدر أمره بالمسير ، فسرنا . . . «مجاعص» والبغلتان فى المقدمة ؛ ثم « الشيخ عاد » فـ « مس إيفانس » وأنا معها فى المؤخرة . . وقد أُعِدَّت إحدى البغلتـَينْ للركوب ، فمن أحسَّ منا تعبا فهى

له ، وأما الأخرى فتحمل مَؤُونَتَنا وما يلزَم لنا :

وسرتُ بخُطوَات متزنة ،أضربُ بعَصايَ الارضَ ضربات تنسجم مع خفْقِ قَدَمَيَّ .

وكان الطريق صاعداً متعرِّجا، أرضُه صُلْبَةٌ مملوءة بالحجارة، فكأنّ هذا الضربَ من السير ضرورةٌ طبيعية تقتضيها هذه الأحوال .

وسار رفاقى أيضا مثلَ سيرى ، فكانت تنبعثُ لوقع العِصِيِّ المتزن ، المُتساوِق مع صوت خطانا على الأرض الصخريّة ، نغمة جديدة فى أذنى ، أشْعَرَتْنى بخطرِ المهمـــة التى اعتزمْنـا الاضْطلاعَ بها .فكأننا فرقةٌ من الجند، توجَّهْنا لكشف مخْبَأ لبعض قطّاع الطريق نباغتهم فيه .

وظللتُ منكَّسَ الرأس ، مغموراً بسَيْل من الأفكار المتضاربة . فإذا رفعت عينى ، طالعَتْنى هذه الأشكال الثلاثة :

« مس إيفانس » بقَـوامها المبسوطِ الفاتن ، وقبعتها العريضة .

« والشيخ عاد » بجسمه الممتلىء ، وكوفيته الحريرية الطويلة المُـدّاب . وذلك « الجاعص » الذى يشبه الجلادين فى مشْيته وهيئته . . . وكان ظلُّهم المنطلقُ بهم يَتْبعهم وهو يتخايل

متكسراً على الصخور المختلفة فى أشكال غريبة .

ولم أسمع « مس إيفانس » تتكلم . فهل كانت تفكرُ فى مصيرها كما كنتُ أفكر ؟ . . . وبدأنا نشعرُ بوطأة الحرّ ، فخلعنا بعضَ الملابس ، وألقيناها على الأكتاف . . .

والتفتَ « الشيخ عاد » إلى « مس إيفانس » يقول لها :

« أتشعُرينَ بتعب ؟ »

فأجابته فى لهجة تأكيد وأنفَة :

« كلا . . . كلا . . . . »

وكان وجهُها قد بدأ يحتقن ، وتعترضه خيوط رقيقة من العَرَق . . .

ونظرتُ إلى البغلة التى أُعِدّت لمن يتعَب ، وجعلتُ أفكر فيمن يكون أولَ راكب . فأزمعتُ فى خَبيئة نفسى ألا أكونَ ذلك الشخص ، مهما يكن من إعيائى .

وتابعنا سيرَنا فى صمت شامل . ولكن النسيم الخفيفَ الذى كان يتمسّح بوجوهنا ، جعل يحمل إلينا أصواتاً من بعيد ، تبيّنّا فيها أهازيجَ بعضِ الرُّعاة . . . وكان غِناءً ساذَجاً لطيفاً أدخل علىّ بعضَ الطُّمَأنينة ، وغيّر شيئاً من نفسيّتى الحرِجة . . .

ولم يمض على ذلك وقت طويل ، حتى سمعنا صوتَ « الشيخ عاد » يعلو فى الجوّ بأُغْنيَّة تعبِّر عن تلك الحياة الفِطْرِيَّة التى يحياها الإنسانُ البَدَائىُّ فى هذه النواحى المنعزلة . وشجَانى غناؤه ، فأنصتُّ إليه كلَّ الإنصات ، وشَمِلَتْنى سكينة نادرة ، وأدرتُ بصرى فيما حولى ، فإذا بالجبال الشاهقة المُخيفة التى كانت توحِي الىَّ منذُ لحظة بالخطَر ، تبتسمُ لى فى جمال وجلال . . . واختفت من مُخَيِّلَتى فرقةُ الجند الذين يريدون مباغتةَ اللصوص فى المخابىء ، وحلّتْ مكانها طائفةٌ من الحُجَّاج الصالحين يسيرون نحو المَعْبَدِ العظيم ، حيث يبتغونَ رحمةَ الله ورضوانَه !

وسرنا كذلك وقتاً ، وغِناءُ « الشيخ عاد » يصحَبُنا ، فيجدّدُ من نشاطنا ، ويُوسِعُ فُسْحَةَ الأمل أمامنا . وراحت خطواتُنا وهى تُصَعِّدُ فى بُطْءٍ وانتظام ، تَتَّحِد بالغناء ، وتؤلف وحْدَةً فنيةً هى أقربُ إلى الرقص الإيقاعىّ الساذَج ...

وعدنا نرتدى ملابسَنا التى خلعناها ، إذ كان الجوُّ قد بدأ يَبْرُد ، والهواء يشتدُّ فى هبوبه . . .

وأخيراً استوقَفَنَا الشيخُ قائلا :

« فلننظرْ حولَنا يارِفاق ! »

فطُفنا بأنظارنا ، فإذا نحن على القِمَّة ، وإذا بالفندق تحتنا نقطةٌ ضائعة بين الصخور . . . وراءَنا ما قطعناه من طريق شاقّ عسير . وقال « الشيخ عاد » :

« هل لكم فى أن تأ كلوا ؟ »

فقلت :

« أشعر بجوع قاتل ! »

ووجدنا المكانَ يصلح للراحة ، فيه كثيرٌ من المغاور ، فاخترنا مغارة صغيرةً أجادت الطبيعةُ نحتَها ، وكان الهواءُ يهُبّ بشدة ، فيكاد يُطيرُ أغطيةَ رءوسنا ، وينتزع منا ملابسنا ، فهرولنا إلى المغارة ، فاجتمعنا فيها .

وجاءنا « مجاعص » بالطعام ووضعه أمامنا ، فالتففنا حوله ، وأخذنا نأكل فى شهيَّة نادرة . . . وقالت « مس إيفانس » :

« أخشى أن نأتى على الزاد فى وجبتين أو ثلاثٍ ، إذا استمرت شهيَّتنا على هذه الحال ! »

فابتسمت ، وقلت :

« أمامنا الأعشاب والجذور . . . لن نموتَ جوعاً على أىّ حال ! . . . »

وقال « الشيخ عاد » :

« إن مؤونتنا تكفى عشرةَ أيام ، فهل تظنّين أن الرّحلة تستوعب أكثرَ من ذلك؟ »

فأجابت :

« لا أظن ، ولكن هذا يتوقف على مبلغِ نجاحنا . »

فقال « مجاعص » وهو يحاول إخضاع لقمة كبيرة حشا بها فمه :

« وإذا لم نعثُر على القصر فى مدى عَشَرَةِ أيام ؟ »

فأجابت « مس إيفانس » فى يقين وحزم :

« لن أعودَ قبل أن أجدَ هذا القصر ! »

فتوقّفَ الرجلُ عن المَضْغ ، ونظر إليها مدهوشا . فقلتُ له وأنا أضحك :

« لا بأس ، ياسيد « مجاعص » ، إن طعمَ الأعشاب والجذورِ لذيذ ، فيجب أن تُجَرّبه ولو مرةً فى حياتك ! »

وانحنى « مجاعص » على شاربه يفتله . . .

وبعد أن انتهينا من الأكل ، أخرج « الشيخ عاد » (الخريطة) من جيبه ، ونشرها أمامه ، ثم أخذ يدرُس معنا الطريق ، ويحدّدُ لنا الموقعَ الذى نحن فيه ، والبقعةَ التى نقصدُ إليها . .

وبعد أن شربنا القهوة ، قمنا نستأنفُ السَّير ، وما إن نحرَّكنا حتى شملَتنا الصمت ، واحتوتْنا تلك الموجَةُ الرُّوحيَّة التى يَسْبَحُ بها الصوفىُّ فى تأمُّلاته . . . حقًّا لقد كان لهذا القصر سلطانٌ روحىٌّ عجيب على نفوسنا ، سلطانٌ خفىٌّ يجذِبنا إليه على الرَّغم مما يُحِيط به من مَشَاقٍّ وأخطار .

وبدأنا نَنْحَدِر إلى أسفلَ ، إذْ كان علينا أن نَهْبِط إلى الوادى المُنبسطِ خَلْفَ الجبل ، ثم نبدأ صعوداً جديداً إلى قمَّةٍ أخرى . . . وهدأ الهواء ، فلم نَكَدْ نشعُر به . وكانت الظِّلالُ الباردة تكسو سفْحَ الجبل ، وتحجُب عنا قاعَه . ورأينا أن الهبوطَ أصعبُ من الصعود ، إذْ يكاد المُنحَدَرُ يكون أفقيًّا ، إلى أنه كثيرُ التعاريج والمزَالق ، مملوءٌ بالحُصا . فكنا نسير فى بطء شديد ، وحذَرٍ بالغ .

وألفيت البغلتين تُنَقِّلانِ حوافرَهما على الصخور فى جُهْدٍ كبيرٍ ، وأخذتْ كتائبُ الظلام تهجُم علينا فى إصرار ، تريد أن تضربَ حولنا نطاقا منيعا لا نستطيع الفَكَاكَ منه ، فاضطُرَّ الشيخ أن يُصْدِر أمرَه بالوقوف . فوقفنا . . .

وسمعتُه يُهَمْهِم :

« لا ندْرِكُ قاعَ الوادى إلا بَعد ساعة ، وقد أصبح السيرُ شديدَ العُسْر ، فلننتظر قليلا » .

فقلت :

« وعَلامَ الانتظار ؟ »

فلم يُجِبْنى ، بل كان منهمكا ينظُر فى السماء مدقِّقاً . . .
وبعد لحظة قال :

« أبْشِروا ، فقد جاءنا الفَرَج ! »

وما كاد يتم قوله ، حتى بَدَأت الحُلْكَةُ تَنْقَشِعُ ، وانبعث ضوء أحمرُ فى جوانب السماء . وجلسنا على الصخور ونحن نُراقب هذا الضوء الجميل يَعْبَثُ بالليل ويداعبه ، مُسْتَرِقا خطاه فى خِفّة . ولَبِثنا كذلك ، وعيوننا متطلعةٌ إلى السماء ، لا نتفوَّه بكلمة ، مأخوذينَ بروعة الطبيعة ، منتظرين بُزُوغَ ذلك الساحرِ العظيم !

وكنا لا نسمع فى ذلك الصمت الرازح ، إلا صوتَ الهواء المحتبِسِ فى الوادى ، فكأنه أنينُ شاكٍ أو أسير . . . حتى البَغلتان لقد اشتركتا معنا فى الإصغاء والسكون ، فلم تَصْدُرْ

منهما حركة أو شَحِيجٌ ، بل وقفتا جامدتين كأنهما تحت تأثير قوة مغنَطِيسيَّة .

وأخيراً ظهر القمر يَعْبُرُ قِمَمَ الجبال فى جلال وانتصار ، يسبَح فى هدوء غريب ، ويبتسم حولهُ للأكوان معتَزًّا بجماله وقوته . وإذا بالوادى يَتَفَتَّحُ عن جوانبه ، ويتكشّف عن أسراره . وانتشرت همْهَمة غريبة تكاد تخْطِئُها الأُذن . فهل كانت أصواتَ بعض الحشرات قد خرجت من جُحُورها مُرَحِّبة ؟ أم هى أصوات كائناتٍ غيرِ منظورة جاءت تشارِكُنا فى استقبالِ ضَيْفِنا الكبير ؟

لقد شاهدتُ بزوغَ القمر كثيرا ، وأعجبتُ به كثيراً ، ولكننى لم أره قطُّ على هذه الحالة التى رأيتُه عليها فى ذلك الوقت ، ولم أشعر نحوَه بذلك الشعورِ الذى أحسستُه آنئذٍ ، خفَضتُ رأسى وأنا أرتعش !

ونبهنى صوتُ « الشيخ عاد » وهو يقول :

« هيّا . . . فلْنتابعِ المسير . »

ونهضنا ، فاستأنفنا سيرَنا فى بطء وحَذَر ، كما كنا من قبل ، وما زلنا كذلك حتى بلغنَا بَطْنَ الوادى . واختار لنا

« الشيخ عاد » مكانا يصلُح للبيت ، وأمر « مجاعص » أن يَنصِبَ لنا الخيْمَةَ ، وأن يُرِيحَ البغلةَ مما تحملُ من ثِقَلِ الأمتعةِ والزّاد .

وتطوَّعنا جميعا لمساعدة « مجاعص » ، فانزلنا الأحمالَ عن الدابة ، وبدأنا نَدُقُّ الأوتادَ للخيمة ، ونهيِّئُ مخادِعَنا . ورأيت « مجاعص » قد ترك للبغلتين الحبلَ على الغارب ، فانطلقتا تعْدُوَان ، وهما تقفزان وتَشْحَجَان ، أشدَّ ما تكونان مَرَحا ونشاطاً !

والتفتُّ إلى « مجاعص » وقلتُ له :

« ألا تخشى على البغلتين أن تَهْرُبا أو تَضِلاَّ الطريقَ ؟ »

فضحك ضِحْكةً عريضة ، وقال :

« أنت لا تعرف طبائعَ هذا الحيوان ، إنه مَضْرِبُ المَثَلِ في الوفاء وقوةِ الغريزة . . . ولو ضَلَلْنَا نحن طريقَنا ، لما وجدنا خيراً منه دليلا يرتاد لنا السبيلَ إلى الإياب . على أنكم ما دمتم معي ، لا خوف عليكم من شيء . أنا ابنُ الجبل ، لقد رُبِّيتُ في أحضانه ، وكبرْت بين وِدْيانه وقِمَمِه . أعرف صخوره حجَراً حجراً ، وعيونه نَبْعاً نبعاً ! »

وندمت على تمهيدىَ السبيل لثرثرة « مجاعص » وانهمكت في عملى أضرب وَتِدَ الخيمةِ بحجر كبير ، وأنا أدعو « مس إيفانس » فى صوت عال أن تحذو حذوى .

وأتممنا تهيئةَ المكانِ فى وقت قليل ،وجلسنا أمام الخيمة نتأمّلُ النارَ التى أشعلناها للتدفئة وإنضاجِ الطعام . وبدأ « الشيخ عاد » يحدثنا حديثه الطريف .

والتفتُّ نحو صديقىّ . وقلت لهما :

لن أنامَ الليلةَ فى الخيمة . إن القمرَ يغرينى بأن أفترشَ الأرض تحت ضيائه . يكفينى أن آخذَ معى غطاءً واحداً أتدثَّرُ به ! »

فأقرّانى على رأيى ، فقمت لآخُذَ الغطاءَ من الخيمة ، فلما صرتُ فى داخلها ، سمعت « مس إيفانس » و« الشيخ عاد » يطلبان منى أن آتى لهما بغطائهما أيضاً ، فحملتُ لهما ما أرادا.

ومضيتُ ألفُّ نفسى بغطائى ، وتمددتُ على الأرض ووجهى نحو القمر ؛ أريد أن أُشبعَ ناظرىَّ بنوره اللّألاء .

وجعلت أُصغى إلى حديث « الشيخ عاد » . . . وما عَتَمتُ أن غشيَنى النُّعاس !

... وفتحتُ عيني ، فطالعتني أشعةُ الشمس ، وهي تطبَع على جبينِ السكون قبلةَ الصَّباح . فالتفتُّ حولي ، فوقع بصري على « مس إيفانس » وهي متمددةٌ على باب الخيمة . فقصَدْتُ إليها ، وجلستُ بالقُرْبِ من رأسها أتأمَّلُها .

وأحسستُ بغتةً رَجفةً تسرِي في جسدي ، فهل كانت من نسْمَة باردة هبَّتْ على وجهي ؟ أم كان مرْجِعها شيئاً آخرَ لا أعرفه ؟

وتحركتْ « مس إيفانس » ، وبدأتْ أهدابُها تختلج ، ثم فتحتْ عينَيها في تَلَـيُّنٍ وتمهل ، فما إن رأتْني حتى قالت في شيء من الانزعاج :

ماذا ؟

— جئت لأوقظَكِ !

فابتسمتْ ، وهي تقول :

« أشكر لك ... »

وقامتْ متباطئة ، وهي تجمع غِطاءها ، وتُسَوِّي ملابسها ثم قالت :

« شاهدت رؤيا غريبة ... رأيتُنِي على ظهر باخرة تمخر المحيطَ الشماليّ ، وإذا بجبل من الثلج قد ظهر لنا ، فدَهَمَتْنا

موجةُ بَرْدٍ عاصف ، كادت تَصْرِفنا عن الخطر المُلمّ الذى يتهدَّدُنا . . . »

وابتسمتْ ابتسامةً بهيجة !

واستيقظ « الشيخ عاد » على حديثنا ، فقام نَشِيطاً على وجهه بشاشة . . .

وسرْعانَ ما أقبل «مجاعص» وهو يتثاءب ، ويضرب الهواءَ بذراعيه . . .

وقمنا نسير .

ولما رأى « الشيخ عاد » إصرارنا على التَّرجُّل ، وعلى ترك البغلةِ لا يركبُها أحد ، أمر « مجاعص » أن يَقْسِمَ الأحمالَ بين البغلتين .

وسرنا نُصعِّدُ فى سَفح الجبـــل ، وكان الطريق طويلا على وُعُورته ، ولكننا قطعناه منشرحةً صدورُنا نَتغنَّى . ولم نشأ أن نجلسَ لنستريح ونطْعمَ ، بل تناولنا غَدَاءَنا ونحن سائرون . فقد امتلكتْنا حماسةٌ غريبة كحماسة الجندِ الأشداء فى حوْمة الوَغَى . فلم نعرفْ للتَّعب معنى ، ولم يشغَل فكرَنا إلا شاغلٌ واحد ، هو الوصولُ إلى القِمَّة فى أقرب وقت مستطاع .

وقد اضطُررْنا أن نأكلَ مرتين قبل أن نصلَ إلى غايتنا .

ومما يستدعي العجبَ أننا لم نسألْ مرةً : في أي وقت نحن ؟ ولم يُخرِجْ أحدٌ منا ساعةً للنظر فيها . وكانت خطواتُنا وئيدةً ولكنها متزنة . وكثيراً ما دُرنا حولَ أماكنَ نبحث فيها عن خيرِ طريق نسلكه .

وأخيراً وصلنا ، وإذا بالشمس تميل للغروب ، ووقفنا على القمّة ، فألفيناها قمةً عظيمة يَكِلُّ الطَّرْفُ عن إدراك منتهاها . ولبثنا مَلِيًّا ، نريد أن نتبينَ : في أيِّ جهةٍ نحن منها ؟ وأن نمتعَ النظرَ بخلابَةِ الطبيعة من حولنا . ولكن الهواءَ كان شديداً قاسياً يَهُبُّ علينا في إلحاح ، فكأنه يريد أن يحملَنا على ساعديه الجبارَيْنِ ، ويُلقي بنا على الصخور في مساربِ الهاوية ، عقاباً لنا على اقتحام مملكته النائية . ورأينا في عرْضِ القمة بعضَ الفَجَوات ، فقصَدنا إلى إحدها ، وحطَطْنا رحالنا فيها . وبدأ « مجاعص » يُجهِّزُ لنا القهوة ، ويملأ لنا « الغلايين » بالطباق . وجلستُ متربِّعاً ، وأنا مستندٌ بظهري إلى صخرة خَشِنة . وبدأت أشربُ القهوة وأدخن « الغليون » مُغْمِضَ العينين ، مستمتعاً براحة لم أذُقْ في حياتي أطيبَ منها .

لقد كان علينا أن نَسيرَ على هذه القمة المستطيلة بصخورها الناتئة ومزالقها المُهلِكة، نتطلّع إلى الوادى الآخر — ذلك المكانِ المجهولِ المُفعَم بالأسرار — نكتشفُ فيه موضعَ القصر، فهو قائم هناك فى مخبئه السحرىّ، يَسْخَر من الإنسان والزمن معاً.

وأمضينا ليلتَنا فى الفَجْوة، بعد أن غطيناها بالخيمة، والتحفنا الأغطية الغليظة، وأشعلنا النارَ طولَ الليل. وعند الصباح واصلْنا مسيرَنا، بعد أن أخرج كلٌّ منا منظارَه المكبِّر. وكنا كلما سرنا بضعَ خطوات توقّفْنا لحظة، وأخذنا نتطلّع إلى الوادى مُدَقِّقينَ فاحصين. وظلِلْنا نمشى فى حَذَر أىِّ حذر، لكثرةِ مايعترضنا من عَقَبات الطريق فى كل خطوة، وما نراه من المهاوى التى تحُفُّ بنا من كلِّ جانب. ولم يكن الهواءُ يُعفينا من عَبَثه بنا، ودَفْعه لنا، وجَذْبه إيّانا هنا وهنالك... وقد تمر علينا سحابةٌ من السحب، فتلُفُّنا فى بخارها الرَّطْبِ تسدّ علينا مذاهبَ الطريق، وإذا بكلِّ شىء يستخفى، فنقفُ نتبادَلُ النّكاتِ الفكهةَ، حتى تنقشعَ السحابة الراحلة... وكان يخيَّلُ إلىَّ فى مسيرى أن حذائى قد تمزّق إرْباً إرْباً، وأن قدمىَّ قد بدأتا تلمسَانِ الصخرَ وتدْميان.

أمضينا يوماً كلُّه جَهْدٌ وإعياء، ولكننا لم نعثُر فيه على شيء. وإذا بالقمة تستطيل أمامنا أكثرَ من ذى قبل، وإذا بنا أمام مجهودٍ جبَّار علينا أن نُتمه فى صبر وجَلد!

وفى اليوم التالى ازداد توعُّرُ الطريق، ووقفنا حيارَى أمام مَعْبَرٍ ليس من سبيلٍ لمواصلةِ السير على غيره... فقالت «مس إيڤانس»:

«أذكر أن الراعىَ الذى اشترك فى بَعثةِ الكشف الأولى، قد حدَّثنى فى شأن هذا الممَرّ!»

فأجابها «الشيخ عاد»:

«أمتأكدة أن حديثَه يَعنى هذا الممرَّ نفسَه؟ إن كثيراً من الممَرَّاتِ الخطِرة يملأ هذه المِنطَقَة..»

فَهَمْهَمَتْ «مس إيڤانس»:

«لا أدرى على وجه التحقيق..»

وجعل «الشيخ عاد» ينظر إلى الممَرّ بعينه الفاحصة، ثم يُنقِّلُ بصره فى البغلتين. وأطال التفكير، ثم قال:

«لا حيلةَ لنا يا رفاق فى اصطحاب الدابتين!»

فتقدم «مجاعص» واندفع يقول:

« إن هلاكهما محقق ! »

فقال « الشيخ عاد » :

وماذا ترتئى أن نفعل ؟

— أرى أن تتركوهما فى عهدتى ، فأتكفل لكم بإعادتهما سالمتين إلى مقرهما .

فنظرتُ إلى « الشيخ عاد » و « مس إيڤانس » ونظرا إلىّ .

وابتسم « الشيخ عاد » لـ « مجاعص » وهو يقول :

« كلا . . . لا نحبّ أن نموت وحدنا . . . تشجّعْ ، وتعالَ معنا ! »

فاهتز شارب « مجاعص » وتغضّن وجهُه ، وقال :

« ماذا ؟ أيخطرُ ببالكم أنى أتردد . . . لولا أننى مشفق على هاتين البغلتين . . . »

فقال « الشيخ عاد » :

« اتركِ البغلتين وشأنهما . إنهما لا تعدَمان مرعًى ، وهما فى غير حاجة إلى دليل ! »

فقال « مجاعص » وهو يزفرُ :

« هذا ما أقوله وأكرره ، ولكننى ظننتكم على رأى غير رأيي ! »

* * *

واخترنا من أحمال البغلتين ما هو ضرورى لنا ، فوزّعناه علينا نحن الرجال ، وبدأنا نجتاز الممَرّ ، يستعين بعضُنا ببعض ، بعد أن شددْنا أوساطنا بالحبال . ونجحنا فى عبوره ، واتضحت لنا صعوبةُ مهمتنا فى أقسى مظاهرها . ولكن كلما عَظُمت الصّعاب وكثُرت ، قوِيَت عزائمُنا ، وتجددَ نشاطنا، واشتدت رغبتنا فى اكتشاف ذلك الأثرِ العجيب . . .

وأمضينا يومين معاً نجُوبُ القِمّة ، وقد تغيرتْ بنا الحالُ من سير على الصخور وحافاتِ المهاوى ، إلى جُهْدٍ شاقّ فى تَسَنُّم الجبال واقتحامِ معابرِها المَخُوفة . . .

والقصر ؟ أين هو ؟ لم نَرَ منه أثراً بعدُ . . . أتكونُ القصةُ خرافة ؟ وتكونُ الخيبةُ نصيبَنا ؟

وبعد يومين آخرين ، تملك قلبي اليأسُ ، فنظرت إلى « مس إيفانس » نظرةً تحمل ما أُكِنُّ من معنى ، دون أن أتكلم . . . فأدركتْ ما يجولُ بخاطرى ، ووقفتْ أمامى

وقفةَ كبرياءَ وتجلد. وقالت وحدَقتاها تلمعان فى وَهجِ الشمس:

« القصرُ موجود، وسنهتدى إليه حتما ! »

ومرَّ بعد ذلك يومان أيضاً ، وأوشك الزادُ أن ينفَدَ ، على الرغم من تقتيرنا فيما نأكل منه. واعترى « مجاعص » وجوم غريب ، وغشيَتْه كآبة صَمَّاء ، ولم يَعُد يُسمعنا مبالغاته المستفيضة فى وصف شجاعته ، والإدلال بخبرته. وتراخى شارباه ، وانحنَتْ قامتُه. وكان إذا صادفَتْه فى الطريق عقبةٌ كؤود ، طمَحَ ببصره إلى السماء ، وصرخَ من أعماقِ قلبه :

« الله يخرب القصر ، ويحرق اللى بناه ! »

* * *

وبعد أن جاهدنا جهاداً مضنياً فى ارتقاء إحدى القِمَمِ العالية جلستُ مع القوم بجوار غار صغير أستريح ، وجعلتُ أفكر فى هذه المغامرة الغريبة التى أصِرُّ على إتمامها ، راضياً بأن أهلِك فى هذه البقعة المرهوبة ، وكيف يقابلُ الأهلُ والأصدقاء فى مصرَ خبرَ فقدانى ، فإذا عرفوا أين مِتُّ فلا أدرى بماذا يؤوِّلونَ ذلك الجنونَ الذى استحوذَ علىَّ فى البحث عن « قصر مسحور » فى أحضان الجبال !

وحدث أن تناولتُ منظاري ، فوضعته على عينَيَّ مداعباً ، وانطلقتُ أضحك من نفسي ومن حالتي . فإذا بـ « مس إيفانس » تقترب مني ، وتسألني :

« أوجدتَ شيئاً ؟ »

فقلتُ لها هازلا :

« طبعاً . وجدتُ قصرَك المُنيفَ ! »

ووقع بصري في تلك اللحظة على مكان في سَفْح الجبل ، لا يختلف عن غيره إلا في بعض تجوات على سطحه . وشعَرْتُ برجفة تتمشّى في جسدي ، وكانت « مس إيفانس » بلا منظار ، إذ كان قد تحطم على الصخورِ صباح اليوم . فدفعت إليها منظاري . وقلت لها :

« انظري ، أنظري ! »

فأخذَته وجعلت تستشرفُ المكانَ ، ثم سمعتها تصرخ منادية « الشيخَ عاد » ، وأشارت إلى الموقع ، فأخرجَ منظاره ، وبدأ يفحصه بمجامع عينه ، ثم سمعتُه يغمغم :

« أممكن هذا ؟ أممكن ؟ »

ثم التفتَ بعضنا إلى بعضٍ صامتين ، والحيرة تلمعُ بها عيوننا !

وأخيراً قالت « مس إيڤانس » :

« إن منظرَه ينطبق على مالدينا من معلومات ، َهلموا . . . إن المسافة بيننا وبينه لا تَقِلُّ عن نصفِ يوم . . . »

وتوردَّ وجهُها ، وأمسكتْ بيدى ، وهزّتها فى حماس !

والتفت إلينا « مجاعص » وهو فاغرٌ فاه ، وقال :

« أين (المدعوق) القصر ؟ أين ؟ إنى لا أرى شيئاً . . . »

فناولته المنظار ، وأشرتُ إلى الفجَوات ، قائلا له :

« هنالك . . . انظر ! »

وجعل يُجيلُ بصره وقتاً فى الجهة التى عينتها له ، ثم أعاد إلىّ المنظار فى يأس ، وهو يُدَمدِمُ :

« الجنون فنون يا سيدى ! »

وعدنا نسير ، فإذا بنا نقفزُ قفزاً ، ويحُثُّ بعضنا بعضاً على السرعة ، إلا « مجاعص » ، فلقد كان يجرى خلفَنا كما يَتبَعُ الكلبُ صاحبَه ، عليه أن يُطِيعَ ، وليس له أن يفهَمَ إلى أين يساق !

. . . وبعد أن قطعنا شوطاً فسيحاً ، وقفنا نستوضح المكانَ فى تشَوُّفٍ ، وقلت ا « لشيخ عاد » :

« مارأيُكَ ؟ أتَظُنُّ ؟ : . . . »

فأجابنى وهو يبتسم ابتسامتَه الهادئة :

« أظن أن الطبيعةَ ليست هى وحدَها التى نحَتَتْ هذه الفَجَوات ! »

وسرنا ، فبلغنا أكثرمن نصف المسافة ، وكنت أضع منظارى على عينىّ بين فترةٍ وأخرى ، فتبدو هذه الفجواتُ وقد اتخذت أشكالَ عيونٍ مخيفة . وخُيِّلَ إلىَّ أنى أسمعها تسائل نفسَها فى غضب : ماسرُّ وجودِنا فى هذا المكان ؟

ولاحظتُ فى أثناء السير أن قدَمىّ كانتا تسُوخان فى الأرض شيئاً ما . . . فَوَقَفْتُ الرَّكْبَ ، وقلت لـ « مس إيفانس » و « الشيخ عاد » :

« إن طبيعة الأرض قد تغيرت . فقد أصبحتْ أشدَّ ليناً مما مضى . ما رأْيُكما ؟ »

وما كدت أتمُّ جملتى ، حتى سمعنا صُراخا حادًّا قد تعالى فى الجوّ فجأة ، مصحوبا بدَوِىٍّ مكتوم . فالتفتنا خلفنا مذعورين ، فإذا بقِطْعَةٍ من الجبل تنهار مثيرةً معها غباراً أزرقَ كالحا ، وانتشر الغبار حولنا فجأة ، فسدَّ دونَنا المسَالك . فوقفنا حيثُ كنّا ، وقد

تماسكنا بشدّة ، منتظرين بين فينة وأخرى قضاءَ الله فينا .
وشعرتُ باختناق ، واندفعنا نَسْعُلُ ، فكأننا نلفظ أخرَيات أنفاسنا . . .

وانقطع دويّ الانهيار ، ولكنّ صُراخَ الاستغاثة كان يتعالىَ في الحين بعد الحين ، تتجاوب بصداه الحزين اليائس أكنافُ الجبل . . . وسمعت « الشيخ عاد » يهمس :

« المسكين ! »

وبدأ الغبار ينقشع ، فكأننا خرجنا من الجحيم ، وهبتْ علينا ريح قوية من الشمال ، فأخذت تطارد فلولَ ذلك الغبار .
ورأينا الوادى يعود إلى هيئته الأصيلة تحت أشعة القمر الواهنة .

وانثنى « الشيخ عاد » يُحِدُّ نظرَه فيما تحت أقدامنا من المهاوى .

وسمعنا صوتاً حبيساً ، يقول :

« الحقونى . . . فى عرضكم أنقذونى ! . . . الجبل كله رازح فوق صدرى . . . لا تتركونى ! »

وأخذنا نتشاور : أنترك المسكين يقضى تحت الركام ، أم نخفُّ إليه محاولين إنقاذه ، وفى ذلك تعريضُنا لأشدّ الأخطار ؟

ولم يمض وقت طويل ، حتى رأيت « الشيخ عاد » قد خلع كوفيته وصداره ، وأخذ يتمنطق بالحبل ، وهو يقول :

« سأنزل وحدى ، وعليكما إِدْلاءُ الحبل ومراقبتى . . . »

ونظرنا إليه فى وَجَل ، وقد مضى لم يَنْبِسْ بحرف ، وبدأ يهبِط . . .

وانهمكتُ و « مس إيڤانس » فى عملنا نراقب الرجل ، ممسكينَ بالحبل ، متيقّظينَ للمفاجآت . وكان « الشيخ عاد » يَنْقُلُ خُطاه فى مهارة وحِذْق ، فعَجِبنا له يُحْسِنُ ذلكَ على الرغم من بدانته ، فكأنه (بهلوان) حاذِق ممن يَعْرِضون ألاعيبَهم على المسارح .

وعمَّ الوادىَ الصمتُ العميق ، فلم نكن نسمعُ إلا خَفْقَ خطوات الشيخ ، وهى تفسَحُ لها طريقاً بين مدارج الصخور .

وخُيِّلَ إلىّ انى سمعت صوتاً غريباً يشبه الهمهمة ، فالتفتُّ إلى « مس إيڤانس » أسائلها بنظرى ، فقالتْ خافتةَ الصوت :

« أيكون صفيرَ الرياح على القِمة ، أم. . . ؟ »

وتشبثتْ بى . . .

فأردت أن أرفعَ إلى القِمَّة بصرى ، ولكننى لم أجْسُر .

ووصلَ « الشيخ عاد » الى مكان « مجاعص » وطَفق يرفع الحجارة ، وكانت مهمةً غيرَ شاقَّة ، فبدا على الفور رأس

« مجاعص » ، ثم ظهر جسمه الفحل . وما إن رأى الشيخ أمامه ، حتى هوى على يديه يقبلهما ويُنَدِّيهما بدموعه ، وهو يردد :

« في عرضك ، يامعلم ، لاتتركني . ولنبعد من حيث أتينا ! »

فقاطعه الشيخ في همس :

« صمتاً . . . لاتُعْلِ صوتك ! »

فألقى « مجاعص » بوجهه في صدر الشيخ ، كما يحتمي الطفل في صدر أبيه . وتركه « الشيخ عاد » حتى عاوده بعض الهدوء ، فقال له :

إن أمامك مُرْتَقىً صعباً ، عليك أن تعلوه ، ولكن خبرني : أجريح أنت ؟

— جسمي كله يشخب دماً ، وقد تحطمت عظام رأسي !

فتفحصه الشيخ على عجل ، ثم قال :

« من حسن حظك أنك انزلقت على أرض لينة . . . أما هذه الجروح فليست بذات بال ! »

ثم أخرج من صدره زجاجة صغيرة ، وامر « مجاعص » أن يشرب ما فيها ، فأذعن للأمر ، وأفرغها دفعة واحدة في جوفه ، وقال « الشيخ عاد » :

والآن هيّا . . .

— إلى أين !

— إلى فوق ، حيث ينتظرنا صاحبانا . . .

وأخذا يصعدان فى المرتَقَى العَسِر : الشيخ من أمام ، و«مجاعص» من خلفه، يَتْبَعُه كظلّه ، وهو قابض على طَرَف الحبل . وانتظرنا طويلا ، حتى وصلا . فما إن دنا « مجاعص » منا ، حتى رأيناه قد تساقط على الأرض فاقدَ الحركة ، فأسرعنا نُسْعِفه . أما « الشيخ عاد » فوقف يَنْهَج ، وهو يمسَحُ عن وجهه العرق .

وبعد هنيهة رأيت الشيخ يتلفَّتُ حوله ، فوقع اختيارُه على شبه جُحْر ، فأصدر أمرَه أن نذهبَ إليه . وكان الظلامُ قد غشيَنا شيئا ، فدخلنا الجُحْرَ كأننا قطيع من الحيوان يأوِى إلى حظيرته . . . واختار كلٌّ منا مكانَه . وجلستْ « مس إيفانس » على مقربة منى ، وهَيْنَم « الشيخ عاد » :

سنقضى ليلتنا هنا . . .

وتألبَتْ علينا الظُّلْمة ، ولفَّنا صمت مرهوب . وازدادت الحلكة ، حتى لم يعد يرى أحدُنا مَن حولَه . وطال صمتُنا .

وخيِّلَ إلىَّ أنى وحيدٌ فى هذه المغارة المنقطعة ، وتطاير من رأسى كلُّ ما عقلْتُه وفهمتُه من البراهين التى تنفى وجودَ السحر والخرافات . وحاصرتْنى الهواجسُ من كل صوب ، وامتلأ رأسى بمناظرَ صبيانيةٍ مُزعِجَة . فجعلت أفكرُ فى أجناسِ المخلوقات الغريبة التى تسكن هذه الشِّعَابَ ، وما أعدَّتْه لنا من ألوان الفتكِ والإيذاء . . .

وتحركت فى مقعدى ، وسَعَلْتُ ، فجاوبنى سُعَال الصَّحَابِ ـ وأحسست يدَ « مس إيڤانس » تتلمَّسُ يدى ، فأخذتها فى راحتى ، وأطبقتُ عليها أناملى . . . ثم رأينا المأوَى وقد بدأت تنيرُه أشعةُ القمر ، فتنهدتُ طويلا ، وطُفتُ بعينى ، فألفيت « مس إيڤانس » منكمشةً بجوارى ، تدور برأسها الدقيقِ حولها ، وعيناها لامعتان كما تلمع الماسةُ المصقولة . « والشيخ عاد » ينظر أمامه نظراً تائهاً ، مسترسلا فى أحلامه . أما « مجاعص » فقد كوَّمَ نفسه وراح فى سُبات عميق !

وطال صمتُنا ، ورأيت فَصَّىْ الماس ، وقد بدأ يَدِبُّ إليهما الفتور . ومال الرأسُ الدقيقُ على كتفى فتوسَّدَه . وغلَّفت القمرَ فى هذه اللحظة سحابة كثيفةٌ أعادت الظلمةَ إلى المأوَى . . .

ورفعتُ يَدَ «مس إيڤانس» إلى فمى فى تباطُؤ وتراخ . . .

ثم أغمضت عينىّ ، وجعلت أستقبلُ أحلامىَ المؤنسَةَ فى ذلك الوكرِ الموحش ، الذى تربض الشياطينُ حوله ، ويَكشرُ فيه الموتُ عن أنيابه !

وأيقظنا «الشيخ عاد» قُبَيلَ الفجر ، وهو يقول :

«هيا يا صحابى . . . نريدُ دخولَ القصر قبل عود الظلام . ولا ندرى ماذا ينتظرُنا من مفاجآتِ الطريق !»

٣

وتناولنا طعامَنا المتواضعَ على عَجَل ، وأخذنا نسير . وكنا نمشى ببطء حَذِرين ، نخشى انخسافَ الأرض تحتنا . ولكننا قد نُضطَرُّ — طوعاً لمشورة « الشيخ عاد » — أن نجتاز بعضَ الأمكنة وثباً وعَدْواً . وقد نختار طريقاً يلوح لنا أنه بالغٌ بنا الغاية ، فنقطع فيه شوطاً فسيحاً ، ثم يتضح لنا أنه طريق عسير ، فنرجع على أعقابنا ، ونتوخّى طريقاً سواه .

وكذلك لم تهدأ لنا حركة ، حتى أوفت الساعة على الثانية بعد الظهر ، فجلسنا لنتناولَ بعضَ اللحم القَديد ، ونَنعمَ بقسط من الراحة . ثم قمنا بعد قليل نتابع السير .

وكنا كلما اقتربنا من القصر ، اتسعت فَجَواته ، وازدادت ظلاماً . وأشرت إلى فجوة أكثرَ اتساعاً من غيرها . وقلت :

« ألا يكون هذا موضعَ الباب ؟ »

فأجابنى « الشيخ عاد » :

« يلوح لى ذلك . . . »

واتجهنا فى سيرنا نحو تلك الفجوة ، وكان علينـا أن نصعَدَ إليهـا فى طريق ُخيِّـلَ إلىَّ أن أحداً من قبلنـــا لم يسلُكه . والحق أنه لم يكن طريقاً بالمعنى المألوف ، فلقد كنـا نسير فى مكان وَعْـر ذى سطح منحدر مختلفِ النتوء ، حجره أملسُ ، ينزلق عليه الحذاء انزلاقَـه على رغوات الصابون ، فكلما خطونا خطوةً مَهَّـدنا المكان لمواقع أقدامنا . وكان عملا شاقّـا مضنياً ، بيد أننا جاهدنا فيه جهادَ المستميت . وكنا صامتين لا يُسْمَـع لنـا إلا خفقُ الأقدام وهى تضرب فى الصخر العنيد ، وإلا زفرات « مجاعص » وأنينـــه . . . فنـال التعب منى كلَّ منال ، حتى قام فى يقينى أننى سأهْـوِى حتما ، وأن مثواىَ لا بدَّ بطنُ الوادى !

وفى النهاية وصلنا ، فإذا نحن أمام َفوْهة كفَـوْهة المغاور ، لا تستطيع العينُ اقتحامَ ظلمتها .

واستندنا إلى الجنادل ، مَبْـهوزِى الأنفاس . ورأيتُ « الشيخ عاد » يتهيأ لدخول الفَـوْهة ، فصرختُ :

« سنأتى معك . . . تمهَـلْ ! »

فالتفت إلىَّ ، وقال :

« كلا . . . انتظروا ، فلن أغيبَ طويلا ! »

وتوارى شبحُه فى الظلام ... وأسرعتْ دقاتُ قلبي ...

وعاد الشيخ يقول :

إن المكانَ مسدود ، لا منفذ له .

— إذاً . . .

— هيّا إلى الفوْهة الثانية .

واستأنفنا سيرَنا كما كنا على الصخور الناتئةِ المُلْسِ ، واستبدَّ بي ضيق شديد ، وهبتْ فى نفسى ثورة صامتة ، أتساءلُ : مالى ولهذه المغامرة الحمقاء ؟

ووقفنا لنستريح ، فاسندنا ظهورَنا إلى الحجارة المسنونة الأطراف . وأطبقتُ جفنيّ ، وشعَرت بأن المتاعب تطحَن جسمى طحناً . ألا يمكننى أن أختلسَ بضعَ لحظات أستمتع فيها بنوم خاطف ؟ أراهن السكون كله على أننى أستطيعُ أن أنام واقفاً ، مُسْنِداً رأسى إلى رماح الصخور ، وتحت قدمى هذه الهوةُ السحيقة ! . . . ومن يمنعنى من ذلك ؟ فلأفعَلْ .

وسَرْعان ما سمعتُ صوتَ الشيخ عاد ، يقول :

« هلمّوا ! »

ففتحتُ عينيّ حانقاً . واستسلمت للمقادير . وواصلنا السير ، وبعد لأْيٍ بلغنا الفَوْهة ، فدخلنا فيها ، وتقدَّمَنَا الشيخ ، فرأيته قد أخرج شمعةً من جيبه فأشعلها ، ومشى محاذراً وقد حنَى هامتَه ، وانكمش متلصِّصاً ، كأنه مقْدِم على جريمة . فمشينا على أثره منكمشين كذلك . وأخرجتُ مسدسى ، وقد أرهفتُ أذنى لأضعفِ حركة . واتضح لى أننا نسير فى دهليز رَطْب ، منقورٍ فى قلب الجبل . ولم يَفُهْ أحدنا بكلمة . وبدأ الدهليز يلتوى بعد أن كان مستقيما ، وطال سيرُنا والطريقُ ما يزال فى التوائه وإظلامه . ثم رأيناه يتسع شيئاً ويستنير . وأخيراً ظهر أمامنا منفَذ يغمره وَضح النهار ، وغمغمتُ قائلا :

« لقد وصلنا إلى داخل القصر . فلنستعدّ ! »

وسرنا حتى انتهينا إلى المنفَذ ، فإذا بنا نطِلّ على الوادى الذى تركناه خلفنا ، وإذا الفَوْهةُ التى ظنَنَّاها غايةَ المرحلة ، هى بعينها الفوهة التى دخلنا منها !

والتفت بعضنا إلى بعض متسائلين . . . ورأينا « مجاعص » يجلس على الأرض ، وقد انفجر فى ضحكةٍ طويلة ، ثم قال :

« حقا لقد وصلنا ! »

فأجابه « الشيخ عاد » فى حزم وعزم :

« سنصل أيها الغبىّ ، وسترى . . . »

وجلسنا على رأس المَدْخَل فترة ، ثم قمنا نستكشف الفَوْهَة الثالثة ، فوجدناها بلا مَنفَذ ، ولكنها كانت فسيحةً كأنها قاعةٌ لا يُعْوِزُها إلا الأثاث . فقال « الشيخ عاد » وقد تجلى اليأسُ فى نظرته :

« هنا سنمضى الليلة ! »

وتجهَّمَ وجه « مس إيفانس » ولم تنطقْ بكلمة ، وأخذنا نعدٌ المخادعَ . وبعد قليل أطفأ « الشيخ عاد » الشمعة .

وبينما أنا قد غلبنى النوم ، إذْ شَعَرْتُ بيدٍ تهُزُّنى بلطف ، وإذْ بى أمام « الشيخ عاد » ، فبادرتُه بقولى :

ماذا هناك ؟ أخطرٌ أحْدَقَ بنا ؟

— كلا . ولكن يلوح لى أنى عرفت الباب . .

— الباب ؟

— تعالَ معى !

ونفضتُ بقايا النوم عن عَيْنَىَّ ، وقمتُ معه ، فقادنى إلى الركن الأيمن من الحجرة ، وأشار إلى صخرة من الحائط ، وقال :

« ادفعْها بيدِكَ قليلا . . »

فدفعتهـا ، فإذا هى تلين بعضَ اللّين تحتَ يدى . فابتسم « الشيخ عاد » وقال :

لقد قضيتُ الوقتَ منذ أخذكم النوم وأنا أفحص عن جدار المغارة ، حتى عثرتُ على هذه الصخرة ، فتولانى الشكُّ فى أمرها لبروزها عن مستوى الجدار ، فأخذتُ أحفِر حولها ، حتى تبين لى أنها مستقلة ، ليستْ جزءاً من الحائط !

— والآن ماذا ترى ؟

— نُتمُّ العَمل معاً ، حتى يتبينَ لنا صدقُ ظننا . . .

وناولنى قَدُوماً وإزميلا ، وأخذ مثلَهما ، وجعلنا نعمَل ، فتعمقنا فى الحفر حول الصخرة ، مجتهدَيْن فى إخراجها من مكانها . وأيقظنا « مجاعص » ليساعدَنا فى عملنا ، ولكنه لم يفعل شيئاً يستحقُّ الذِّكر ، بل لقد كان تثاؤُبه وتمطيه المستمرُّ يعطلنا ، حتى خشينا أن تصلَ إلينا عدْواه !

ولما حَمِىَ وطيسُ الدقّ ، استيقظتْ « مس إيفانس » فأقبلتْ إلينا ، وفهمتْ كلَّ شىء دون أن تسألنا ، فلمع وجهُها بالبِشر والارتياح !

وبعد جُهد جَهِيد استطعنا انتزاعَ الصخرة ، فظهرت كوَّة

خلفها سرداب ، فنظر « الشيخ عاد » منها ، ونور الشمعة الشحيح يضيء له بعضَ المكان ، ثم قال :

« إنه الطريقُ الموصِّلُ إلى القصر، ليس فى ذلك أىُّ ريب . هيَّا يا صحابى ! »

وهمهم « مجاعص » يقول :

ولماذا لا ننتظر إلى الصباح ؟

— وهل تظن أن أشعةَ الشمس ستنفُذ إلى هذا السرداب ، فتنير لكَ الطريق ؟ !

— ولـكن . . .

— ولـكنْ خيرُ البر عاجله . . . هيـا !

وانحنى « الشيخ عاد » فدخل ، وتَبِعَتْه « مس إيڤانس » ثم دخلتُ وراءهما وأنا أجرُّ « مجاعص » من يده . . . وكان أولَ ما طالعَنَا من هذا السرداب، رَدْهةٌ صغيرة لم يستطع نورالشمعة أن يُرِيَنا جوانبها . وتقدم « الشيخ عاد » ونحن خلفه يمسك بعضنا بعضاً ، لا نتحركُ إلا معاً . . .

وسرنا على هذه الحال خَطَوات ، وبغتةً شعَرْنا باختلال توازُننا ، فتساقطنا ، بعضُنا على بعض ، وإذا الطريق يغدو

زَلقاً شديدالتَّحَدُّر. وأحسَسنا أنفسنا نَهبِط بسرعة شديدة، فى ظلام دامس، إلى حيث لا نعلم!.. ولم يفه أحدُنا بلَفْظٍ، وعاجلتنا الخفافيشُ المذعورة تطير من حولنا، وتضرب باجنحتها وجوهَنا، فتعالى صياحُنا... وما لبثنا أن وجدْنا أنفسَنا قد تراميْنا فى شبَكةٍ أو نحوها، مرتفعةٍ عن الأرض، فى بقعةٍ مكشوفة!

تمَّ ذلك كله فى لَحظات، كأنها وَمضَات البرق، فلم نَعِ من أمرِنا شيئاً. ولاندرى كيف عجزنا عن تَوَقِّى هذهالسقطة، وتلافى الانزلاق فى ذلك المنحدَر.

وكان نور السَّحَر يتقدمالفجر، ويؤذِن الوجود بانحسارالليل، فتبينَ لنا أننا فى شبه حديقة. وكان كلما انجَلى الصباح تراءتْ لنا أغصانُ الشجر، وحمل إلينا النسيمُ البليلُ عِطْرَ الرياحين..

وتفحَّصَ «الشيخ عاد» حبال الشبكة، وقال:

«فلنقطعْها بالسكين!»

وبحثنا عن سِكين معنا، فلم نوفقْ إلى شىء يصلح لهذا العمل. فقال «مجاعص»، وهو يجتهد فى فَسْح محلٍّ له بيننا:

«إننى أستطيع أن أقرِضها بأسنانى!»

فقالت « مس إيفانس » :

« إذا تم ذلك أمكننا أن نقفزَ منها إلى الأرضَ ، فى غير مَشَقة . . . »

وانطلق « مجاعص » يَقرِض الحبال ، وما كاد يبدأُ عمله ، حتى سمعتُ « مس إيفانس » تهمِس :

« انظرا إلى هذه الخيلة . . . انظرا . . . ألا ترَيان فيها شيئاً ؟ »

فجعلت أنظر ، أنا و « الشيخ عاد » ، وهَيْنَمْتُ :

« أرى عينين براقتَين ! »

وسمعنا حفيفاً خفيفاً بين الأغصان ، فقلت :

قد يكونُ حيواناً وحشياً .. أخشى أن يَهْجُمَ علينا ، ونحن فى مَحبِسنا هذا ، فلا نستطيع منه الفَكاكَ ! »

ووجدتُنى أُخرِج الغدّارة وأُطلِق عليه من فورى رصاصة ، ولكن مَرقَ فى الوقتِ عينه نصل لامعٌ من ناحية الشىء الذى توهمته وحشاً ، فكاد النَّصْل يَمَسُّ كَتِفَ « مس إيفانس » ثم ارتطم فى الصخرِ خلفَنا ، وعاد فاستقرّ فى حجْرِ « الشيخ عاد » . . . وتداولناه فى عجَلةٍ ننظرُه ، فإذا هو

بخنجرٍ ماضٍ ذو حدين ، له مَقبِض من أغصان الشجر ،

فتبادلنا النظرات مصعوقين . . .

وتوارت العينان وهدأت الحركةُ بين أغصان الخميلة . فقلت :

« ماهذه المُعَمَّيَاتُ ؟ »

فأجابنى الشيخ :

« أخشى أن تكون قد أصبتَ آدميًّا ! »

وغمرَنا صمتٌ مرهوب !

وأمسك « الشيخ عاد » بالخنجر يقطع به حبال الشبكة .

فَفَسَحَ لنا فيها طريقَ خَلاص . . .

٤

لم تمض فترة وجيزة ، حتى كنا نحن الأربعة على الأرض نسير بخطا حذرة نحو الخميلة المقصودة . وكانت طلائع الشمس قد بدأت تبسط علينا أشعتها ، فبدا لنا المكان ، وكأنه من أدغال الوحوش . . . فدخلنا ونحن نشق لنا طريقاً بين الأشجار الملتفة ، والأغصان المهدلة ، ندوس الأعواد اليابسة ، والأوراق الذابلة ، فيسمع لها صوت مفزع فى هذا المكان الصامت !

وأخيراً وجدنا أنفسنا أمام جسم مطروح ، فتقدمنا نتبينه ، فإذا هو يقوم برأسه ، ويرسل لنا من مقلتيه وميضاً ناريا ، وسمعناه يردد :

« لا تمسونى . . لا تقربونى . . . إنى أمقتكم ! »

ووقعت عينه فى هذه اللحظة على « مس إيفانس » فألفينا حدقتيه قد اتسعتا اتساعاً عجيباً ، ونظره قد تركز فيها . ثم اختلج جسمه بأسره ، وعلت وجهه ابتسامة ، وقال :

« عجيب ! . . . عجيب ! . . . أممكن هذا ؟ »

ثم هَوَى برأسه على الأعشاب ، وهو يحدّق فى « مس إيڤانس » ويُجَمْجِم :

« صفاء ! . . . صفاء ! . . . »

وانكب « الشيخ عاد » عليه ، يتعرّف جُرْحَه ، ثم اتجه إلينا ، وقال :

« أعطُونى خِرَقاً وماء . . . »

فناولناه مامعنا من خِرَق ، ووجدتُ وعاءً فخّاريا بالقرب من الرجل الجريح ، فناولت « مجاعص » إياه ، وقلتُ له :

« دونَكَ الحديقة ، فابحثْ لنا عن ماء فيها . . . »

فغمغم يقول :

أفى هذا المكان المهجور ماء ؟

— اذهبْ ياغبىّ ، أتظن أن هذا الآدمىّ يستطيع أن يعيشَ هو وما حوله من نبات ، دون ماء ؟

فتلكـأ قليلا ، ثم أخذ الوعاءَ ومضى . . .

وتقدمتْ « مس إيڤانس » من الجريح ، وقالت تخاطبُ « الشيخَ عاد » فى رِفق :

ماذا ترى فى جُرْحِه ؟

ـ يلوح لى أن حالتَـه لا تخلو من خطَـر ، إن الرّصاصةَ مرت بجانب الثّـدْى الأيمن . .

فركعتْ « مس إيڤانس » بجوار الغريب ساهمةً تفكـر ، ثم تساءلتْ :

« لماذا يدعُـونى : صفاء ؟ »

فقلتُ لها على الفور : .

« الرجل إما مخبول ، وإما محموم ! »

وعاد « مجاعص » بالوعاء ، متهللَ الوجه ، يقول :

« عثَرْتُ على نَبْـعٍ ماؤه زُلال . . . سبحانَ مُبْـدِعِ الأكوان ! »

وشرع « الشيخ عاد » يُضَـمـدُ الجرْحَ ، ونحن ملتفّـون حوله . . .

أما الغريب فهو رجل عَبْـلُ الجسم، مبسوطُ القامة، ذو ملامح متناسقة ، تهـدَّلَ شعرُه على مَنـكبَيْـه ، واختلط فى لحيته الـكـثّـة البياضُ بالسواد . وهو مرتدٍ ثوباً ساذَجاً قصيراً مجدولا من ألياف الشجر . يَتَـمنْطق بحزام ، ورأسه عارٍ ، وقدماه حافيتان .

وظلت « مس إيڤانس » تحملُ الإناءَ لـ « الشيخ عاد » تساعده فى عمله ، ورأيتها تُـطيل فى الوعاءِ النظر . . . ولما استنفد الشيخُ

ما فيه من ماء ، أدنَتْه « مس إيڤانس » من عينيها تُقلّبه ، وتستوضحُه بدقة . ثم ناولتني إياه ، وهي تقول :

« اقرأ ماهو مكتوبٌ عليه . . . »

فقرأتُ كلمة « صفاء » منقوشةً في حافتِه من الداخل في وضوح ، فغمغمت :

« لا أدرى ما الذى يَعْنيه بهذا . . . »

وقمتُ إلى النَّبْع ، فوجدته غيرَ بعيد من مكاننا ، موضعُه بين الصخور ، يَفيضُ ماؤه عليها ، ثم يعود فيجتمعُ في شبه حَوْض ، ومن ثمَّ ينحدر في قناةٍ تجوسُ خلالَ الخيلة . . . وهنالك على الصخر الأملس الذى ينبثقُ الماءُ من قلبه ، ويتسايلُ على صفحته ، قرأتُ بخطٍ مُنَمّقٍ كلمةَ « صفاء » !

فقلت هامساً :

« وهنا أيضاً ! »

وفيما أنا عائدٌ ضللتُ طريقى ، فرأيتُنى بالقربِ من الشبكة التى كانتْ تحتَويننا . والتقى بصرى بقطعةٍ ملساءَ في جانب الجبل ، منقوشٍ عليها بخطٍ كبير ذلك الاسمُ السالف ، وقد رسم تحته قلبٌ بجانبه زهرة . . . فنالتنى حيرةٌ لا تخلو من

ضيق . وعدت إلى « الشيخ عاد » بالإناء ، وقد اندلقَ نصفُ مائه على الأرض .

ولما فرغ « الشيخ عاد » من تضميد جراح الغريب اخترنا له مَرْقداً طيباً فى الخيلة ، ثم مَدَدْناه عليه ، ووسَّدْناه حُزْمَةً من الهشيم .

وأردنا أن ننصرفَ عنه . فقالت « مس إيفانس » :

« أنتركه وحيداً ؟ »

فقال « الشيخ عاد » :

ألم يكنْ وحيداً قبل أن نحضرَ ؟

— ولكنه جريح !

— لاخوفَ عليه . إنه لا يستيقظُ قبل ساعة أو أكثر . . .

وأخذنا سَمْتَنَا إلى النبع ، فغَسلنا وجوهَنا ، ورحنا ننهَلُ منه حتى ارتوَينا . وقرأتْ « مس إيفانس » كلمةَ « صفاء » المنقوشة فى صخرةِ النَّبْع ، ولكنها لم تفتَحْ لى حديثاً فى شأنها . وجلسنا حولَ الماء متباعدينَ فى شبه حَلقة ، وقد أسند بعضُنا ظهره إلى الصخور ، وبعضٌ آخر إلى ساقِ الشجر

وامتلكتنا غاشيةٌ من صمت ، وغلب النعاسُ « الشيخَ عاد » فأطبقَ جفنَيه . أما « مجاعص » فكان يَغُطّ في نومه منذ جلس ، ورأيتُ رأسي يترنّح ، وما هي إلا أن رحت في عالمِ الأحلام !

* * *

وفتحت عَينَيَّ ، فألفيتُ « الشيخ عاد » و « مجاعص » على حالها . أما « مس إيفانس » فلم تكن موجودة ، فقمت مدفوعاً بعامل خفيّ ، وقصدتُ على الفور خميلةَ الجريح ، وكنتُ أسيرُ متلصّصاً . فما إن اقتربتُ من المكان حتى سمعتُ صوتا ، فوقفت مختبئاً أنصت . . . وطُفْتَ ببصري بين الأغصان ، فرأيت « مس إيفانس » راكعةً بجوار الجريح ، وهو آخذٌ بيدها يحملقُ فيها ، ويقول :

« شكراً لكِ على زيارتكِ لي بعد هذه الغيبة الطويلة ! »

فقالت :

أأنتَ الآنَ أحسنُ حالا ؟

— إنني لا أشعرُ بمكروه ، ما دُمْتِ معي !

— ما دمتُ معكَ ؟

— إن الرصاصةَ التي قذفتِني بها كانتْ جزاءً عدلًا !

— ولكنني لم . . .

فقاطعها قائلا :

« لقد جئتِ لتقتصّي مني . . . فالحمدُ لله ! »

ورفع يدَها إلى فمه . وقبّلها قبلةً طويلةً حرّى ، وكانت شفتاه ترتعشان ، وعيناه تَندِيَتين بالدموع . . .

ثم رأيتُه قد غاب ثانياً عن الوعي ، فخرجتُ من مخبئي ودنوت من « مس إيفانس » فقالت :

إنه يحدِّثني حديثاً يبعثُ على الدهشة . . . يزعم أني جئت لأقتصَّ منه !

— أما قلتُ لكِ إنه مخبولٌ أو محموم ؟

ولَحِقَ بنا « الشيخ عاد » فقلتُ له :

« لقد استيقظ الجريح ، ولفظَ بضعَ كلماتٍ محمومة ، ثم فقدَ وعيَه كما كان من قبل » .

فجسَّ « الشيخ عاد » نبضه ، ثم قال :

« لا خوفَ عليه ، اتركُوهُ ليرتاحَ . . . هيّا بنا لنرتادَ الحديقة ، ونستوضحَ شيئاً من القصر . »

* * *

وخرجنا من الخميلة ، فجُبْنا أنحاءَ الحديقة ، فألفيناها فسيحةَ الأرجاء ، تَغمُرُها أشجارُ الفاكهة ، محَملةً بالطَّيِّب الجَنِيّ من مختلف الثِّمَار فأكلنا ما لذّ لنا وطاب حتَّى بلَغنا الشِّبَع . ثم مَرَرنا بأقسام من الحديقة مزروعةٍ أصنافاً شتى من الخضَر والبُقُول .

وانْثَنَيْنا بعد ذلك فى بعضِ المدَارج ، فَعَثَرْنا على كُوخ ، فدَخلناه ، فاذا هو مَسْكَنٌ غاية فى السذاجة ، به مَرْقَد مُسَوًّى من الغصون ، وغطَاء مجدولٌ من لِحَاء الشَّجر ، وأسْفَاطٌ يحوى بعضَها أليافاً أو ما يُشبِهُ الألياف ، وفى بعضها الآخرِ قليلٌ من البقول والثِّمار الجافّة . . . هذا إلى عددٍ ضئيلٍ من الأوانى الفَخَّارِيَّةِ ، مبعثَرٍ فى شَتّى الجوانب ، بعضُه فوقَ بعض .

وسمعتُ « الشيخ عاد » يقول :

« لماذا اختارَ هذا الكوخَ لنومه ؟ أليس فى القصر حُجُرَات ؟ »

وخرجْنا نَمُرُّ بجوار الشبكة . . . ووقفتْ « مس إيڤانس » أمام الصفحة المصقولة العريضة المكتوبِ فيها اسمُ « صفاء » تحدِّقُ طويلاً فى هذا الاسْم وفيما تحته من رَسْم القَلْب والزهرة .

ثم تابعتْ سيرَها معنا. وكانتْ أقلَّنا كلاماً، وأكثرَنا تفكيراً.

ولكنها كانت أشدَّنا اهتماما بما يَستبينُ لنا من معالم المكان.

وجُزْنا بفتحوَتَين تُشبهان المغاور، فولجناهما، فلم نجد بهما شيئاً يسترعي الاهتمام. ومرَرْنا بالثالثة، فإذا هي ذاتُ سَقْفٍ عالٍ، وفي ركن من أركانها مدفأةٌ منقورةٌ في الصخر بها بقيَّةٌ من رماد، وعلى مَقْرَبَةٍ منها كُتَلٌ من الخشب المُعَدِّ للحريق...

فقال «الشيخ عاد»:

«أُراهِنُ على أن هذه المغارةَ مشتىً له، فهو يقضي فيها الليالِيَ الزمهرير!»

فاجابت «مس إيفانس»:

«يا لَهُ من شخصٍ غريبِ الأطوار!»

وقلتُ:

«أخشَى أن نكونَ قد كشفْنا مأوَى رجلٍ من قطاع الطريق، فرَّ هاربًا من يَدِ العدالة!»

فأجابَتْني «مس إيفانس» وهي تنظر إليَّ في عتاب:

«لا تحكُمْ عليه ياصديقي قبل أن تعرفَ حقيقتَه!»

وبدأ الظلامُ يَتَغَشَّى المكان، فقد آذنَتِ الشمسُ بالمَغيب،

واستترت خلف القمم العالية ...

وجعلنا نفكر : أين نبيت ؟ فقال « الشيخ عاد » :

« تستطيع مس إيڤانس أن تنام في السكوخ ، فهو أليق مكان بها ... أما أنت ومجاعص فتبيتان هنا ... »

فقلت.

وأنت ؟

— إنني أفضل العراء ، وسأختار مكاني بين الخمائل .

وقالت « مس إيڤانس » :

ومضيفنا ؟ أنسيت أنه جريح ؟ سأترك له السكوخ ، وسأبحث لي عن مكان آخر ... »

فقال « الشيخ عاد » :

« كلا ، ياسيدتي ، لن يضيره أن يمكث حيث هو ... إنه ابن الغابة ، وحليف الجبل ، وقد يؤذي الانتقال جراحه التي لم تندمل بعد ... »

وانتصحنا بنصيحة « الشيخ عاد » فانطلقنا نهيئ أمكنتنا للنوم . وبعد أن بذلت جهد الإمكان في معاونة « مس إيڤانس » على إعداد فراشها ، وتوفير أسباب الراحة لها ، ذهبت

بـ « مجاعص » إلى الخمائل نجمعُ الهشيمَ والأعشاب . ولما انتهيتُ من تهيئةِ المرْقَـد ، نظرت إلى « مجاعص » وقلتُ :

« مارأيُـكَ فى هذا السريرِ الفاخر ؟ »

فأجابَ ، وهو يَتَـمَطَّى ويتثاءبُ فى تَصَايُح :

أحـلِفُ لك بعُمْـرِى إن كلَّ إنسانٍ يَحْسُدُنا عليه ، حتى السلطان ! »

واستلقى عليه ، وراح يتقلَّب ، وهو مازال يتثاءَبُ ويتمطَّى . ثم هدأتْ حركتُـه ، فنـاديته ، فلم يُجِبْنى . وبعد قليلٍ علا شَخـيرُه ، فتركتهُ ، وخرجتُ أمامَ الساحة ، فوجدتُ « مس إيڤانس » و « الشيخ عاد » يَنقُـلانِ إلى الجريح بعضَ الهشيم ، فذهبتُ معهما ، واستطعنا أن نُعِـدَّ له فى مكانه مَرْقداً ليِّناً ، مَدَدْنَاهُ عليه فى رِفْـقٍ واحتراس ، وغطَّيْناه بفرْوٍ قديم صادفناه فى كُوخِه ، ولم نلبثْ أن تركناهُ نائماً !

* * *

وفى الغَـداةِ استيقظتُ نشيطاً ، فقد قطعتُ ليلتى مسترسلا فى نومٍ شديد . . . وقصدتُ من فورى حديقةَ الفاكهة . وملأتُ سَلتى بأطيب الثِّمار . وذهبتُ إلى الكوخ ، حيث ترقد

« مس إيفانس » ، وعلّقتُ السّلّةَ بالباب ، وأخذتُ سَمْتى إلى النّبْع . وما كدتُ أقتربُ منه حتى رأيتُ سِترًا منسوجاً من الألياف يَتَدلى من شجرة ، يتراءى خلفَه إنسان شِبْهُ عار يَغتَسِل ، وعلى قِيدِ خطُوَاتٍ من السّترِ قميص الإنكليزية الحسناء ! . . . فوقفت لحظةً أبتسمُ فى جَذَل ، وأنا أتردّدُ بين إقدامٍ وإحجام . . . ثم عدتُ أدراجى إلى الكوخ ، وَشَغَلْتُ نفسى وقتاً بإعداد الفاكهةِ لها .

وبعد قليلٍ أقبلتْ ووجهُها ما بَرِحَ يقطُرُ منه الماء ، وشعرُها الساجى مهدّلٌ على أكتافِها . فما إن لمَحَتْنى حتى صاحتْ فى شىء من التّعَجُّب :

« أأنتَ هنا ؟ »

فقلتُ ، وقد استحْيَيْتُ من لهجتِها :

أساءَكِ قُدُومى ؟

— كلا . . . كلا . . . غير أن الوقتَ مبكّر ، ولمْ أكن أظنُّ أنه قد استيقظَ أحدٌ بعد .

— كيف أمضيتِ ليلتَكِ ؟

— أرِقةً قَلِقَةً ، تهفو بىَ الهواجس !

— لَشَدّ مَا يسوءُنى أن أعرفَ ذلك !

ووقفتُ قليلاً صامتاً ، أراقبها وهى تُجَفِّفُ وَجْهَهَا . ثم أدنيتُ منها بعضَ الفاكهة ، وقلتُ :

لقد جئتُ لك بالفَطُور .

— شكراً يا صديقى . . . سأختارُ له عُنْقوداً من العنب . إنه لم يَطْعَمْ غيرَ الماء منذ أمس !

— الجريح ؟

— لقد ذهبتُ إليه حينَ صحوتُ ، فإذا به ما زال نائماً فتركتُه لم أزعجْه .

— أنتِ طيبةُ القلبِ يا مس إيفانس !

قلتُ ذلك فى لهجةٍ تُفْصِحُ عن شىءٍ من الاستنكارِ والتعجُّب . فنظرتْ إلىَّ نظرةً فاحصة ، قابَلْتُها بابتسامةٍ سانحة . . . وخرجْت !

* * *

التقينا بعد ذلك جميعاً على بابِ المغارة . . . كنت جالساً أفكِّر ، وعن كَثَبٍ منى « مس إيفانس » ، تُغنّىَ فى وَهَجِ الشمس بتَصْفيفِ شَعَرِها وتجفيفِه . و « مجاعص » منهمكٌ فى قضم

كوزٍ من الذُّرَة نجحَ فى تَشيِّه . أما « الشيخ عاد » فكان فى داخل المغارة ، ولا أدرى : ماذا كان يعملُ هناك ؟

وخرج بعد فترةٍ ، متهللَ الوجه ، يقول :

ألم ترَ البابَ المؤدِّىَ إلى السِّرْداب ؟

— لم أرَ شيئاً !

— إنه على قيدِ خطوتَيْن من فراشك . . . تعالَ انظر .

ونهضتُ معه ، فوجدت باباً من الحجَر ، لا يبعُدُ كثيراً من مكان فراشى ، فقلت :

« عجيب ! كأنما صُنِعَ ليلاً فى أثناءِ نومى ! »

فضحك « الشيخ عاد » وقال :

لقد كشفتُ خلفه سِرْداباً .

— وإلى أين يُفضِى هذا السرداب ؟

— أكبرُ ظنى أنه مُفضٍ إلى داخلِ القصر !

وجاءت « مس إيڤانس » وكانت قد انتهتْ من تصفيفِ شَعَرِها ، فَقَصَّتْهُ بمهارة خلفَ رأسِها . وتساءلتْ :

« ما الخبر ؟ »

فقصَّ عليها الشيخ كشفه الجديد ، فقالت له :

وماذا تَرَى ؟

— ندخلُ فى السرداب على الفور لإتمام الكشف !

ودخلنا . . . فإذا بنا فى ممرٍّ رَطب ، بدأ ضيّقاً ، ثم انبسط ، حتى أصبح ممراً فسيحاً تغشاه ظلمةٌ غيرُ حالكة .

ولم نسر فيه طويلا ، حتى رأينا أمامنا دَرَجاً حلزونيًّا كأنه دَرَجُ مئذنة ، فجعلنا نَصْعَدُ فيه . وكان « الشيخ عاد » يتوقفُ بين فينةٍ وأخرى ليتفحّصَ الجدارَ أو الدَّرج .

وأخيراً هَمْهَمَ قائلا :

« إنه منحوت فى صميم الجبل . . . »

فقلتُ :

ولكن يلوح لى أنه بلا مُنتهى !

— إذاً سنرقى به إلى السموات العُلا !

وما فتئنا نَصْعَد ، إلى أن بلغنا غايةَ الدَّرَج ، وقد أخذ منا الجهدُ كلَّ مأخذ . وألفينا أنفسَنا أمامَ ثُغرةٍ فى حجم الأبواب المألوفة ينفُذُ منها نورُ النهار . ورأيت « مس إيڤانس » تتهالكُ على الجدار ، ممتقعةَ الوجه ، فأقبلتُ عليها ، وأسندتها إلى صدرى ، وأخذت أروّحُ وجهَها بمنديلى . وانتظرنا حتى

أفاقت من غشيتها . ولما وجدت رأسها على صدرى ، بدا عليها الدهش ، وقالت وهى تستعيد وقفتها :

« إنى آسفة ! . . . آسفة جداً ! . . . هيا . . فلنتابع سيرنا ! »

وولجنا الثغرة فإذا نحن فى ردهة فسيحة يغمرها النور، وينطلق فيها الهواء ، يأتيان إليها من نافذتين مستطيلتين ، ورأينا صُفَفاً من الحجر ، فى كل جانب من جوانب الردهة صُفّة ممتدة ، وفى وسطها خوان كبير من الحجر أيضاً .

فالتفتُّ إلى رفيقى ، وقلت :

« كأننا فى قاعة محكمة من محاكم القرون الخالية ! »

فأجاب « الشيخ عاد » :

« قد يكون صاحب القصر أعدها لتصلح لذلك . ألم يكن أميرا على عشائره ؟ »

وانتحت « مس إيفانس » جانباً ، تؤدى بعض الحركات الرياضية الخاصة بالتنفس ، ثم اتجهت نحو الصُّفّة ، حيث تقوم خلفها النافذتان ، فأسرعت أنظفها ، وأنفى عنها طبقات الغبار التى كانت تكسوها . فشكرت لى ، وجلست ، ثم ألقت بظهرها إلى الحائط ، فقلت هامساً :

« أما زلتِ مُتْعَبة ؟ »

فأجابتنى ، وقد أسبلتْ جفنَيْها :

« أشعُرُ بتعب ، ولكنه ليس بالكثير . . . . »

وكان « الشيخ عاد » يجوبُ الحجرةَ ويتفحَّصُها ، فلم أُلقِ بالاً إليه ، ولم أغادرْ مكانى أمام « مس إيڤانس » . . . وقفتُ أطيلُ النظر فى وجهها الهادئ ، وقد غشيَتْه غَفْوَةٌ خفيفة ، فإذا به قد عراه هُزالٌ وشُحوبٌ لم ألاحظْه من قبلُ . ولكن ذلك لم يَنَلْ من وسامته ، بل لعله قد زادَه إغراءً وفِتْنَة . فإن هذهِ الصُّفْرَةَ القليلةَ التى انتَشرَتْ على صفحته ، فاختلطتْ بحُمْرَته الأصيلة ، أكسبته لوناً شرقيًّا رائعـاً ، زانَتْه رُوحانيةٌ ساحرة ، تنطق بها كلُّ قَسِمَةٍ من قسماته . روحانيةٌ أضاءت خلف أجفانِها المُسْبَلة ، وشاعتْ تحتَ بَشرَة وجهها النَّضر ، فأحالتْ تلكَ الطَّلْعَةَ من وجهِ إنسانيٍّ مركَّبٍ من لحم ودم وعظم ، إلى طيفٍ مؤلَّفٍ من عناصرَ نُورانيةٍ لاتنتسب إلى المادة بشىء !

وأحسستُ يداً تُلاطِفُ كَتِفى ، وسمعتُ « الشيخ عاد » يقول :

« ماذا تَفْعل ؟ أتحْلُمُ بالنعيمِ الموعود ؟ »

فنظرتُ إليه طويلا، وأنا صامت، ثم أجبْتُ فى خُفُوتٍ :

« بل أحلُم بالنعيم المفقود ! »

فابتسمَ ابتسامةً خفيفة ، وضَغط يَدىَّ ، ثم اقتادنى إلى النافذة ، وهو يقول :

« انظر ! »

وانطلقت أتطلَّع من النافذة ، فإذا حديقةُ القصر مبسوطةٌ تحتَ أعيننا ، على مرتفَع شاهق . وعلى الرّغم من ذلك ، استطعنا أن نلمحَ شيئاً يتدحْرَجُ فى ساحةِ الحديقةِ أمامَ الأشجار . وظِللتُ أدقق النظر ، فتبينت شخصَ « مجاعص » فى هذا الشيء . . . يتمرّغُ على الأرض ، كما تتمرّغُ الدابّة الطّروب . فقلت :

« إنى أمنحُ نصفَ عمرى ، إن كان لى عُمْرٌ يستحقُّ الذكر ، لمن يُنيلنى سعادةَ هذا الرجل ! »

وشهدنا « مس إيڤانس » تشاركنا فى النظر ، وهى تبتسِم ، وقد بدا عليها أنها استفادتْ أيما استفادةٍ من تلك الغَفوَةِ التى أغفتها . . . وقالت :

« إننا على ارتفاعٍ عظيم ! »

فقلت :

كأننا فى ذِرْوَةِ هَرَمِ « خوفو » !

— كلما طال مكثنا فى هذا المكان العجيب ، تكشَّفَت لنا معالم جديدة تُورِثُ الدهشة .

ونظرتْ إلىَّ ، ثم قالت :

أفآسفٌ أنتَ لهذه المخاطرة ؟

فابتسمتُ وقلت :

« اذا كنتِ أنتِ تأسفين ! »

— إنى شديد الغبطة بما يحيط بى من عجائب . والآن هيَّا نستأنف عملنا فى كشف القصر !

فتقدَّمَ « الشيخُ عاد » وقال :

« لقد ألقيتُ نظرةً على بقية القاعات ، فلم أرَ فيها جديداً ، ولكن لا بأسَ بأنْ تُسرِّحوا نظركم فيها . . . »

ومضى أمامنا ، وسرنا خلفه ، فاخترقنا بعضَ قاعاتٍ وممرَّات لا تختلفُ عما شاهدناه . وكانت كلها ترِبة ، يَدُلُّ مظهرها على أنها لم تطأها قدمٌ منذ أعوامٍ مديدة . . . ورأينا لبعض الحجَر مدافِىءَ ، ولبعضِ نوافذها مغاليقَ من خَشَبٍ غليظ أو من

حَجَر . ولاحظتُ على « مس إيڤانس » أنها قد لاذَتْ بالصَّمت ، فكانت تتلَفَّتُ حولها تَلَفُّتَ الحالم . . .

ووصلنا أخيراً إلى بابٍ فى نهاية الممَرّ ، فقال لنا « الشيخُ عاد » :

« أكبر ظنى أنه بابُ الخروج ! »

وسمعنا « مس إيڤانس » تنطِقُ فى شُهُومٍ بقولها :

« لا أدرى لماذا يَدْعُونى : صفاء ؟ »

فحدَّقْنَا فيها صامتَيْن . . .

ثم راح « الشيخ عاد » يعالجُ فَتْحَ الباب ، وكان من خَشَبٍ غليظ . فلقِيَ بعضَ الصعوبة ، فأقبلتُ عليه أساعِدُه ، فتمكنّا من زحزحته ، وفَسْحِ مكانٍ لنا نَجُوزُ منه . فقد كان الخشبُ متماسكا ، مشدوداً إلى الحجر ، حتى ليكاد يكونُ معه بنياناً واحدا . . . ومررنا منه ، فَأسْلَمَنَا إلى مَمَرٍّ ضيِّق أظلَمَ والتَوَى ، وكلما توغَّلْنا فيه أطبقَتْ علينا دَيَاجيه واشتَدَّت .

وقال « الشيخ عاد » فى صوتٍ خفيض :

« فَسُبْحَنِي الله ! لم أُحْضِرْ معى شَمَعاً ولا ثقاباً ! »

وبحثت أنا و « مس إيڤانس » عن ثِقاب معنا ، فلم نجد منْ شىء . فقلتُ :

« نعود من حيث أتينا ، فالطريقُ خلفَنا معروف ..... »

فقالت « مس إيفانس » :

بل تتقدم ، فربما أزحنا النِّقابَ عن جديد !

— كيف يتجلّى لنا فى الدُّجَى شىء ؟

— أوَ تَظُنُّ أن المكانَ سيظلُّ على إظلامه طويلا ؟

وأمسك بعضُنا ببعض ، وتقدمنا فى خُطاً وئيدة ، وكان الشيخُ رائدَنا ، يتلمَّسُ الطريق ، ويلقى علينا الأوامر . . .

وسرنا . . . وسرنا . . . واختلَّ توازُنُنا دَفْعة واحدة ، فوقعنا يَتَشَبَّثُ كلٌّ منا بصاحبه ، وهَوَيْنا متدهورينَ فى مُنحَدَرٍ زَلِق . وقبل أنْ نُفيقَ من دَهْشَتِنا وجدنا أنفسَنا فى الشَّبَكة الصائدة فى الحديقة ، ومن ثَمَّ تَسَاقَطْنَا على الأرض . وسمعنا قهقهةً عاليةً وضجيجاً ، فإذا « بجاعص » أمامَنا مُغْرِبٌ فى الضَّحِك ، وهو يقول :

« ما أحلاكم وأنتم مُعَلَّقون فى الشبكة ! ألا تُعيدُونَ الكَرَّة ؟ »

وقمنا ونحن نَنْفُضُ التّرابَ عن ثيابنا ، وصرخ « الشيخ عاد » فى وجه « بجاعص » فأخرَسَه . . وما كدنا نسير بضعَ خُطُوَاتٍ ، حتى التفتَ بعضُنا إلى بعض ، وغلبَ علينا جميعاً ضحكٌ متواصل !

ثم تفرّقنا : مَكثَ « مجاعص » فى الساحةِ بجوار الشّبَكة ، أما أنا والشيخ ، فقصدنا إلى النّبع نستروحُ بعض الحديث. وكانت وجهة « مس إيڤانس » الكوخ .

وبعد قليلٍ تململتُ فى جِلستى ، وتأهّبْتُ للقيام ، فانفرَجت شفتا « الشيخ عاد » عن ابتسامةٍ هادئة ، وقال :

حقاً لقد أبطأنا عليه !

— من تَعنى ؟

فقام ، وتأبط ساعدى ، وقال :

هيّا بنا . . .

— إلى أين ؟

— إلى الجريح . . . أتحسَبُنى أعنى غيرَه ؟

* * *

وصلنا إلى هنالك ، فصادفنا « مس إيڤانس » منحنية على الجريح تساعدُه فى تناوُلِ شرابٍ من وِعاءٍ فخارىّ ، فلما رأتنا قالت :

« لقد أعددْتُ له عصيرَ فاكهة ، إنه فى حاجةٍ إلى التغذية الخفيفة ! »

فأجابها « الشيخ عاد » :

« حسناً صَنَعْتِ ! »

وكان الجريحُ يُقلبُ فينـــا بَصرَه الحائرَ الحذِر ، وهو مُغَضَّن الجبين ، فقالت له « مس إيڤانس » :

« إنهما صديقـاى ، وإنى مدينةٌ لهما بفضلِ الاهتداء إلى هذا القصر ! »

فانبسطتْ أساريرِ وجههِ شيئاً ، ولم يتلفظْ بحرف . ورفع رأسَه يحيّينا ، فأقبل عليه « الشيخ عاد » هاشًّا باشّـــا ، وهو يقول :

« كيف أنت الآن ؟ »

فقال في هَمْس :

بخير !

إننا آسفون لما وَقع لك . . . كان خطأ غيرَ مقصود !

فأجاب في لهْجَةِ يقين ، وهو يَزُمُّ شفتَيْه عَقِبَ كل كلمة :

« ليس ما وقع بخطأ ، إنما هو العدلُ الإلهيّ أتقبّلهُ راضياً قريرَ العَين ! »

ثم عاد يَنهلُ من الإناء ، تُقرّبهُ إلى شفتيه « مس إيڤانس » .

وبعد أن ارتَوَى مَسَحَ براحته فَمَه ، وأسند ظهرَه إلى كَوْمَةٍ من العُشب ، ثم أرخى جَفنَيْه !

وبعد لحظةٍ تكلم بصوت خافت ، وهو ممسكٌ بيد « مس إيفانس » ، قائلا :

« إنى أراكِ الآن فى ثياب العُرس ، والعذارَى يحطنَ بك . . . أراكِ متلألئةً تَفيضينَ حياةً ونورا . . . ثم أرى الغَدّارَةَ صُوِّبتْ نحوَكِ ، والرصاصةَ مخترقةٌ قلبَكِ . ثم . . . »

واحتَبَسَ صوته ، فلم نَعُدْ نسمَعُه ، وإن كانت شفتاه ظَلّتا تتَمَوَّجان !

ورأينا خيطَيْن من الدموع يتهاديان على خَدَّيْه !

وما هى إلا فترةٌ قليلة حتى سكَنَتْ حركةُ شَفَتَيه ، وكانت « مس إيفانس » تُلاطِفُ يدَه ، ثم نظرت إلينا تقول :

« مسكين ! »

وكان مَنظَره حقًّا يَستَدرُّ الرِّثاء !

ولم ألبَثْ أن وَجدتُنى أندفع قائلا :

« لا ريب أنه فَقَدَ عقله ! »

ففتح عينه ، وصوَّبَ نظرَه إلىّ مُحَدِّقاً ، وقال :

«كلا ، ياسيدى ، لستُ مجنوناً ! إن المجنونَ لايستطيعُ أن يمكُثَ غيرَ مُجبَرٍ خمسةً وعشرينَ عاماً فى هذا المكان ! »

فقالت « مس إيڤانس » وقد اتسَعَتْ حدَقةُ عينيها :

أأنتَ فى هذا المكانِ منذُ رُبعِ قرن ؟

— لم أبرحْه دقيقةً واحدةً طوالَ هذه الحقبَة

فابتسمتُ ابتسامةَ إشفاق ، وهَجَسْتُ :

« أليس هذا هو الجنون بعينه ؟ »

ولم أكد أُتمُّ جملتى ، حتى رأيتُ الجريحَ يَشرَئبُّ وقد احتقَنَتْ عيناه ، فكأنهما جمرتان تتلهَّبانِ .

وأمسكَ بالإناء الفارغ ، وهو يصيح :

« اسكت ، وإلاّ شَجَجْتُ رأسَكَ بهذا ! »

فهدَّأتْ « مس إيڤانس » من رَوْعِه ، ومال علىَّ « الشيخُ عاد » ينصَحُ لى بالتزام الصمت . فانتحيتُ ركنا غيرَ بعيد ، ولبِثْتُ أراقبُهم ، وأُصغِى لما يتبادلونَه من حديث .

قالت « مس إيڤانس » للجريح :

« اصدُقْنى القولَ ، من أنتَ ؟ »

فقال لها وقد لطُفَ صوته ، وخفَّتْ حِدَّتُه ، وتحيَّرَ الدمعُ فى عَينَيْه :

صفاء؟! أنسيتِ مَنْ أنا؟

— قُلْ بربك، من أنتَ؟ من أنتَ؟

— يالك! أنسيتِ يوسُفَ الصافى؟

— حفيد الشيخ بشير الصافى مشيِّدِ القصر؟

— إذاً بدأتِ تَتَذَكرينني!

— ولكن يوسف الصافى انتحر!

ووَضحَ الإعياءُ بغتةً على وجه الجريح، فانحنى «الشيخ عاد» على قلبهِ يَتسَمَّع، ثم قال:

«يجب أن يرتاح!»

ورأينا «يوسف» قد تراخى جفناه، وانسابَ بِهِ الكرى. فهمس «الشيخ عاد» فى أُذنِ «مس إيڤانس» ثم تركا الرجل، وجاءا إلىّ. وذهبنا إلى النَّبْع، ونحن سُكُوتٌ، وجلسنا شِبْهَ دائرة، نحدِّقُ فى كلمةِ «صفاءَ» المنقوشةِ فى الصخر الأملس، تتدفَّقُ عليها مياهُ اليَنْبوع، فتدعها تختَلِجُ حُروفُها، كأن لها قلباً حيَّا يَنْبِض!

وبعد حين قال «الشيخ عاد»:

«إن السرَّ يُوشِكُ أن ينجلِيَ...»

فقلتُ :

كيف ؟

— إذا كان الرجلُ صادقاً في زعمه ، فإن قصةَ انتحاره التي نقلها إلينا الرواة ، إشاعةٌ مختلَقَة !

فقلتُ :

أوَ تظُنُّ أنه صادقٌ فيما زعم ؟

— أميل إلى تصديقه .

وَبَرقَتْ عينا « مس إيفانس » وقالت :

« أما أنا فأعتقد أنه غيرُ كاذب »

فطأطأت رأسى ، وعَبِثتُ في الأرض بعود يابس ، وقلت :

« قد يكونُ صادقا ! . . . »

* * *

وطالت جلستُنا . فقال « الشيخ عاد » :

« إنى لا أرى مخاعص ! »

فقلت :

لقد صحتَ به صيحةً أوقعتْ في قلبه الرُّعب .

— لقد أساء الأدب .

— ولكن لا تنس أن موقفنا كان مُثيراً للضحك

— ما كنتُ أتوقعُ لنا هذا الحادثَ مطلقاً .

— غريب أن ينتهيَ مَطافُنَا فى القصر قريباً من فَوْهَة الدخول !

— ليتنا كنا على عِلْم بذلك فى أولِ الأمر !

ونهض « الشيخ عاد » يبحث عن « مجاعص » وبقيتُ و « مس إيفانس » وحدَنا فى المكان . وبدأنا نسمعُ صوتَ « الشيخ عاد » يُنادى « مجاعص »، فتُرَدِّدُ جوانبُ البقعة صداه فى رنينٍ سحرىّ ، وكنت جالساً القُرفُصَاءَ صامتاً وعيناى تحدّقانِ أمامى تحديقاً شارداً ، وقد شعَرْتُ بموجة من الأسى تطغَى على نفسى ، إذ استَعدْتُ فى خاطرى ما جرى بينى وبين الجريح من جدَلٍ لم يخلُ من حِدَّةٍ وعُنف .

وبعد فترة طويلة من الصمت ، شعَرت بيد « مس إيفانس » تُلاطفُ يَدِى ، وتقول :

« أمستاء أنت ؟ »

ولم ألتفتْ إليها ، وظَلِلْتُ على حالى أُحدّقُ أمامى ، وقلت : مستاءٌ ممن ؟

— منه !

— كلا . . . اطمئنى من هذه الناحية . وهل أعير اهتمامى شخصاً مخبولا ؟

— لماذا يصطبغ حديثك فى شأنه دائماً بهذه اللهجة القاسية ؟

— وأنت . . لماذا تظللينه دائماً بهذا العطف الغريب ؟

— ألا يستحق منا هذا العطف ، بعد أن كدنا نقتله ؟

— لو لم نبادره بهذه الضربة ، لقضى علينا جميعاً . إنه من قطاع الطريق ، وقد انتحل شخصية من شخصيات الأساطير ، يخفى تحتها شخصيته الزائفة . إنه يمثل دوره فى إتقان ، وقد قدر على أن يستهويك ، فيخضعك لسلطانه السحرى !

— ماهذا ؟ ألا تخجل من قولك ؟

— إنى لا أخجل من قول الحق ، وإسداء النصح !

— بل إنك لتغار منه . . .

فجابهتها ، وحدقت فيها بشدة ، كأنما يتطاير من عينى الشرر ، وقلت :

« أنا أغار منه ؟ . . . أنا ؟ »

ولم أزِدْ على هذا ، ولم تجب « مس إيفانس » بحرف .
وبَقينا على هذه الحال بلا كلام ، يحدِّقُ كلٌّ منا فى صاحبه.

وأخيراً ألفَيْتُ « مس إيفانس ، تَسْبِل جفنَيْها ، وتقول لى فى لهجة محزونة :

« إنى آسفة ! أرجو أن تنسَى ما وجَّهتُه إليكَ من قول... »

فَخَفَضْتُ رأسى ، وأنا أُجَمْجِمُ :

« وأنا أيضاً شديدُ الأسف على ما بَدَرَ منى . أرجو أنه تسامحينى ! »

وأقبل « الشيخ عاد » فرآنا على هذه الحال ، فادرك كلَّ شىء ، ولـكنه تظاهر بأنه لم يلاحظْ شيئاً .

ثم قال :

« إن المخبولَ مجاعص غيرُ موجود ! »

فقلت :

كيف ؟

— بحثتُ عنه فى كلِّ مكان ، فلم أعثر عليه .

— قد يكون مختبئا فى موضع خفىٍّ هرَباً منا . . .

فقال « الشيخ عاد » .

«ربما كان الأمر كذلك !»

* * *

وقضينا النهارَ بأكمله نبحث عن «مجاعص» فلم نجدْ له أثرا فاشتدَّ قلقُنا عليه . . . وكانت «مس إيڤانس» «والشيخ عاد» يعودانِ الجريحَ فى الحين بعد الحين ، أما أنا فقد فضَّلْتُ ألا أزورَه وألا أبدأ حديثاً فى شأنه . ولكننى علمتُ من الشيخ أنه مازال يهذِي باسم «صفاءَ» ويَرْوِى نُتَفاً متقطِّعة مختلفة تصِفُ مَصْرَعَها فى حفلة عُرْسِها . . .

ولما هجمتْ حنادسُ الليل ، وسار كلٌّ منا إلى مخدَعه ، اعترانى همٌّ ثقيل ، جَثَمَ على صدرى ، همٌّ قد اختلَطَ بخوفٍ وجُبْن . ودخلتُ المغارةَ فى خُطاً متردِّدَة ، ثم أقبلتُ أبحثُ مدققاً : أهناك بابٌ آخر أومكان مستترخلفَ الجدران؟وأحكمتُ إغلاقَ البابِ المفضِى إلى سردابِ القصر ،وأردتُ أن أرُدَّ بابَ المغارةِ أيضاً ، ولكننى لم أفعل ، إذْ وجدتُ فى تركه مفتوحاً بعضَ الطمأنينة ، فقد أحتاجُ إلىالمعونة ، فأنادِى بعضَ الرفاق، فيَسْمَعُ صوتى ، ويَخِفُّ لنجدتى ... ولكن ممَّنْ أخاف ؟ ولماذا أطلبُ العون؟ ذلك ما لم أكن أملكُ الجوابَ عنه !

وأشعلت المِدْفأة لأستنيرَ بضوئها، واستدفئَ بحرارتها.
واستلقيتُ على الهشيم، وقد دَعمْتُ رأسي بيدى، وانطلقتُ أحدّق فى سقف المغارة الكثير النُّتوء، ونار المِدفأةِ تتلاعب عليه فى أشكالٍ بشِعة. ورحت أفكر فى هذه العلاقة العجيبة التى نشأت بين «مس إيفانس» والجريح، وجعلتُ أجمِّع أمام عينىّ ما وقع لى معها اليومَ من مشاحنة، وأستحضِرُ اتهامَها إياى بالغَيرةِ من الجريح.

وتكالبتْ علىَّ الهموم، وأحسَسْت كأن يداً تأخذ بمخنَّقى...
لماذا قبلتُ أن آتىَ معها لكشفِ هذا القصر المشئوم؟ لقد بتُّ أكرَهُه كما أكرهُ صاحبَه... لم لا أتركه وأعودُ من حيث أتيتُ؟... و«مس إيفانس»؟... أفأدَعُها بين ذراعَىْ ذلك الجريحِ المخبول؟

وخُيِّلَ إلىَّ أنى أسمعُ صوتاً يعْوِى فى مكانٍ سحيق، وأرهفتُ أذنىَّ أصغى فى انتباه... أهناك ذئابٌ تحيطُ بنا؟ لست أدرى!

ونهضت أغلِق بابَ المغارة، وعدت إلى الهشيم فارتميت عليه... وتعالى العُواءُ ثانيةً. أعواءُ ذئب هو، أم صوتٌ

آدمىّ ؟ لم يتبين لى حتى الآن شىء . . . إنه ليس صادراً من بعيد ، كما توهمت بادىءَ بدء ، فهل هو صوتُ حبيسٍ خلفَ الجدران المحيطةِ بى ؟

وتذكرتُ غَيْبة « مجاعص » ، فاختلجَ جسمى اختلاجة مفاجئة . لم لا أذهب فأدعو « الشيخ عاد » ؟ وجلست على فراشى أحدّق فى باب المغارة ، واستمهلتُ نفسى وقتاً ، وأرهفت أذنى كلَّ الإرهاف ، ومكثتُ على هــــذه الحال مدة ليست بالقصيرة أتسمَّع ... قد يكون هذا العواءُ صدّى لصوت نفسى العليلة المضطربة . إن أعصابى ثائرة ، وإنى فى حاجة إلى شجاعة نفسية كبيرة لضبطها . . . فألقيت بجسمى على الفراش ، وأرخيت أجفانى ، وأرغمت نفسى على النوم ، كما أرغمتها كذلك على التفكير فى شؤون أخرى ، بعيدةٍ كلَّ البعد عما كنت أجيل خاطرى فيه .

وكدت أنجحُ فى مسعاى ، وشعَرت بطلائع النُّعاس الأولى تغزُو رأسى...وانتبهت مذعوراً ، وأنا أتلفت حولى ، وكلّى أُذن صاغية : أيكون ما سمعته اللحظةَ حلماً أم حقيقة واقعة ؟

ورأيتنى أقفزُ من فراشى ، وأترك المغارة عدْواً ، آخذاً سَمتى

إلى مَبِيت « الشـــيخ عاد » ، وما إن وافيتُه ، حتى جعلت أهزُّه ، وأقول :

« استيقِـظ ! استيقظ ! »

فرفع الشيخ جفنَيْه مرعوباً ، وقال :

ماذا ؟

— سمعت صوتَ استغاثة . . .

— استغاثة « مجاعص » ؟

— لا أدرى على وجه التحقيق ، يخيَّـل إلى أنه حبيسٌ فى مكانٍ مجهول .

— حبيس ؟ ومن حبسه ؟

— من يَدْرى ؟ قد يكون فى قبْضةِ شيطان عنيد . . .

فنظر إلىَّ مَليًّا ، وهو يتفحَّصُنى ، وقال :

أمستيقِـظٌ أنت ؟

— تمامَ اليقظة . . . يجب أن نغادرَ هذا الموطن الممقوت ، يجب أن نُبارِحه من الغد . وإن استطعنا الليلةَ أن ننتقل ، كان أوفقَ وأمثلَ .

— هَدِّىء من رَوْعِـك . . . أراكَ مضطرباً !

وناولني قليلا من الماء ، فشربته ، وقلت على الأثر :

وهي .. يجب أن نُنجيَها منه . إنها تحت تأثيرٍ مغنطيسيٍّ شديد !

— ولكنك تحدّثني في أمر « مجاعص » ! وتذكرُ لي أصواتَ استغاثة !

— لا أدري ! لا أدري !

— قم بنا إلى المغارة ، وسأتبيَّن الأمر بنفسي ، فإذا كان ما سمعتُه أصواتاً حقّة ، بدأنا نبحث عن « مجاعص » فوراً .

وقمت معه إلى المغارة ، وجلسنا على الهشيم ننصت في انتباه ، وأمامنا نارُ المدفأةِ ، وقد أخذَتْ جذْوتها يُسرع إليها الخمودُ فنُحِسُّ الظلمةَ والبرودةَ تشيعانِ حولنا رويداً . . .

وما هي إلا أن عاد الصوتُ ثانية . . . سمعتُه واضحاً هذه المرة ، فما كاد يبلغُ أذنَ « الشيخ عاد » حتى استوىَ في وقفتِه ، وقال :

« إنه مجاعص . . . هو بعينه ! »

ثم خطفَ من الموْقِدِ جِذْعاً طرفهُ ملتهِب ، وقال :

« اتبَعْني ! »

ورأيته يتجه نحوَ البابِ المفضى إلى السِّرْداب ، الذى دخلنا منه إلى القصرِ هذا الصباح ، فسرتُ خلْفَه ، وأوغلْنَا فى السرداب ، وكان منظرُه على ضوءِ ذلك المشْعَلِ الخافتِ مرهوباً مُفَزِّعاً ، وسرنا والشيخ يَتسَمَّع يَمْنَةً ويَسْرةً ، وترادَفَ الصوتُ ، ولكن فى ضَعْف وتراخ ، فتبينَت لى فيه استغاثة مكروبةٌ لاهفة . . . وقال « الشيخ عاد » :

« لقد أحسنتَ صُنْعاً إذ أيقظتَنى . . . . إن المسكينَ فى مَأزِقٍ حَرِجٍ ! »

ورأيتُه يَصْعَدُ الدَّرَجَ فى بُطْءٍ شديد ، وهومازال يَتنَصَّت ثم إذا به قد وقف دَفْعةً واحدة ، وأخذ يتراجَعُ إلى الوراء ، وصاح وعيناه تحدِّقان حيثُ موطئُ قدمَيْه :

« انظر ! »

فتقدمتُ خُطْوَةً ، ونظرتْ باحتراس ، فوجدتُ أمامى فجْوَةً دامسَة كأنها فَوْهَةُ بئر ، فقلتُ وأنا أرتعد :

لم تكن موجودة فى الصباح

— من حُسْنِ حظنا . .

— وكيف وُجِدَتْ ؟

— هذا ما لا أعرفه على وجه اليقين. غير أنه لا بد أن الدرجتين اللتين كانتا تُغَطِّيَانها، لم تكونا من صميم الدَّرَج المحفور، بل كانتا منفصلتَين عنه. أما كيف سَقَطَتا، «مجاعص» فذلك سرٌّ من أسرار هذا القصر!

— أهو هُنَالِك؟

ولم أُكْمِلْ جملتي، حتى تنَاهى إلينا صوتُ المسكين، وكأنه آتٍ من مكانٍ قصيٍّ.. فصاح «الشيخ عاد» يُطمئنه، ثم التفتَ إليَّ، وقال:

عليَّ بالحبل!

— الحبل؟

— لأتدَلَّى به إلى حيثُ هوَى.

— لا أذكر أين وضعناه؟..

— ولا أنا أيضاً... قد نكون نسِينَاهُ في خارج القصر ولكن يوجدُ في كوخ «يوسف الصافي» — أعني حجرة «مس إيفانس» — شيء يُشْبِه الحبْل، يَصْلحُ لهذه الغاية.

— أو تستطيع الحصولَ عليه في هذه الساعة؟

— يجب أن نحــاولَ المستحيل، لإنقاذ روحٍ إنسانية تستغيث... هيَّا!

— ماذا ؟

— اذهبْ إلى الكوخ ، وجئني بما طلبت .

فنظرتُ إلى « الشيخ عاد » متحيراً ، فوجدته يَرْنو إليَّ بنظرة ثابتة . فأطعْته ، وخرجت أتحسَّسُ طريقي فى الظلام المدْلهمّ .

وأخيراً وصلتُ إلى الكوخ ، فوقفت أمامَ الباب متردِّداً .

ثم طرقتهُ بعض طرَقات . فأجابت « مس إيڤانس » وقد بان الرُّعبُ فى صوتها :

من ؟ . . من يَدقُّ البابَ هكذا ؟

— أنا . . أنا يا « مس إيڤانس » !

— أنت ؟ . . . ماذا جاء بكَ فى هذه الساعة ؟

— افتحى ! . . . أمرٌ خطير . . .

وشَعَرْتُ بها تستوى على فراشها ، ثم انقضَت هنيهةٌ لم تتحرك فى أثنائها ولم تتكلم ، فهل خامرها شكٌ فى طويتى ؟ وهل ظنت أنى أحتالُ عليها لغرض فى نفسى ؟ فصحت ثائراً :

افتحى ! افتحى ! إنهُ يُحتضَر !

وأحسَسْت بها تثبُ عن السرير ، وفى طرفة عينٍ وجدتها بالبابَ أمامى . وقالت فى جزَع :

أحقاً أنه يُحْتَضَر ؟

وفهمتُ على الفور من لهجتها مَنْ تعنى . وأدركت هى من تراخيَّ فى الإجابة أنها تعجَّلتْ فى إزاحة النقاب عن عواطفها . . . وقلتُ فى تمهُّلٍ :

« إن الشيخ عاد أرسلنى لأُحضر له حَبْلاً . . . »

وأوضحتُ لها بإيجاز قصةَ الدرجتَيْن اللتين هوَتا بـ « مجاعص » فى مَسْقطٍ يُشبه البئر . . . وكانت تُصْغى إلى فى انتباه ، ونور الهلالِ الغاربِ يُلقى بضوئه المتخاذلِ عليها ، فيزيدُ فى فتنتها ، وهى تخطرُ فى ملابسها الساذَجة ، وخصائلُ شعرِها الطليقِ تترسَّلُ على كتفيها . . . ووقفتُ قليلا لا أتكلم ، أناجى بعينَيَّ ذلك السحرَ الخلاَّب !

وسمعتها تقول :

« تقدم ، وادخُل ، ولنَبْحَثْ عن الحبل . »

ودخلنا ، فلم نجد حبلنا القديم ، وثبت لنا أننا تركناه فى خارجِ القصر فى المغارةِ الأخيرة . فجَمَعْنا ما فى الكوخ من ألياف تصلح لأن يُصْنَعَ منها حبل ، وذهبنا بها إلى مكان « الشيخ عاد » ، فهَمَس قائلا :

« أخشى أن يكونَ قد فاتَ الوقتُ ! »

فقلتُ فزِعاً :

كيف ؟

— لقد صرَخْتُ أناديه مراتٍ كثيرة ، فلم يَرْجِعْ إلىَّ مِنْ جواب !

فغمغمتْ « مس إيڤانس » :

« المسكين ! »

وقلتُ :

« قد يكون مُغْمىً عليه ! »

فأجابني « الشيخ عاد » في حسرة

« قد يكون ذلك ! »

وأقبلنا نحن الثلاثةَ على أشتاتِ الألياف نفتِلها ونجعلُها حبلاً متيناً . وكنا نعملُ بهمَّةٍ ونحن صامتون ، والسكونُ حولنا ساكنٌ في رهبةٍ كئيبة ، كأن العالمَ كلَّه يشاركنا في جزعنا على ذلك الرفيق المنكوب !

وطال بنا الوقت ، فلم نيئَس ، وأتممنا عملَنا . وشدَّ « الشيخ عاد » الحبلَ إلى ظهره ، وجعل يتدلَّى في الفوهةِ ،

وَبقيتُ و« مس إيڤانس » قابضَين على الحبل ، نُرْخيه شيئاً فشيئاً مُترَيّثَين حذِرَين من كلّ طارىء . . . . وكان الجذْعُ الملتهبُ فى يَدِ الشيخ ، يستنيرُ به . وأخيراً شَعَرْنا بهِ يصِلُ إلى القاع ، وسمعناه يقول :

« كَفَى ! »

ومضى وقت وأنا و « مس إيڤانس » نُحَدّق فى تلك الفَجْوَة الدّاجِيَة ، تهُبُّ علينا منها ريح رَطْبَةٌ كريهة ، ورأينا الشُعْلة فى قاع البئر كأنها بَصِيصُ ثِقَاب . . . وكنا نتَتَبَعُهَا بأعيننا فى حركاتها الضئيلة ، وهى ترُوح وتجِيء ، ثم استقرتْ فى مكانٍ واحد .

وشعرتُ بيدَىّ ترتجفان ، وهما قابضتان على الحَافَة . . ولم تكن « مس إيڤانس » بأقلّ منى اهتياجا . ولما طال صمتُ « الشيخ عاد » همستْ « مس إيڤانس » فى أذنى قائلةً :

أنُنَادِيه ؟

— الأفضل أن نتركَه حتى يستكملَ فَحْصَه .

ومضى الوقت ، وتحركَت الشعلةُ فى اتجاهاتٍ متعددة . ثم سمعنا صوتَ « الشيخ عاد » يقول :

« اجْذِبونى ! »

فأخذنا نجتذبُ الحبلَ ، ورأينا الشعْلةَ تتصاعدُ فى تباطؤ ، وأحست يدىَّ تتخاذلان ، نخفتُ العاقبة ، وضاعفتُ من عزيمتى حتى ظهر « الشيخ عاد » وتعلّق بالفوْهَة متحفزاً للخروج ، فوَهَنَتْ قوتى كلَّ الوَهَن ، وجلستُ مُسْنِداً ظهرى إلى الحائط ، أستمع إلى دقّاتِ قلبى السِّرَاع . . .

وخرج « الشيخ عاد » وأخذ ينفُضُ الترابَ عن ثيابه . وكان وجهه متجهِّماً ، وعيناه محتقنَتَين ، ولم تطاوعْه شفتاه على أن يَنْبِسَ بحرفٍ ما ، ففطِنَّا إلى كلِّ شىء . . .

ووجدت « مس إيڤانس » قد أخفتْ وجهَها بين يديْها ، وانفجرتْ باكية . . . . فاحتبَستْ أنفاسى ، وشعَرْتُ بالنار تتأجَّج فى رأسى ، فصحتُ كالمجنون :

« فلنترك هذا القصرَ المشئوم ! يجب أن نتركَه على الفور ! »

واندفعتُ أمزّقُ صِدَارِى ، فأقبل علىَّ « الشيخ عاد » وأمسك بيدىّ ، وقال :

« أهكذا تكونُ مواقفُ الرجال ! »

وانتقلنا إلى المغارة ، أعنى حجرتى ، وجلسنا على مَقْرَبَةٍ من المدْفَأة ، وقد أفاض كلٌّ منا فى صَمْتِه المضطرب !

ثم نمنا حيثُ جلَسْنا ، ولم يُغَيّرْ أحد منا الوَضْعَ الذى كان عليه .

وقضينا اليومُ التالىَ فى عملٍ فاجع ينفُث فى النفسِ سمومَ الغمّ والأسى . فأخرجنا جثةَ « مجاعص » وقمت أنا « والشيخ عاد » بِغَسلها وتكفينها على حَسَب الشريعة ، ثم صلَّينا عليها ، وبعدئذ دَفناها فى دَغَل من أدغال الحديقة . أما « مس إيفانس » فقد لزِمَتْ حجرتَها ، حتى انتهينا من عملنا ، فجاءت إلى قَبْره ، ونثرت عليه طاقةً من الزَّهَر !

لا أدرى كيف احتملتْ أعصابى هذه المشاهدَ المرهوبة ، فلن أنسى ما حَيِيتُ مَنظرَ الجثّة ، وأنا أجذبُها إلى الفوْهة ، فتصعَد على مَهَل ، وتُطِلُّ على برأسها المهشَم ، والدمُ التَرِبُ المنعقد يلوّثُ ملامحَها المتقلّصة . . . ولا أنسى ما عانَيْتُ من المشقّات فى سبيل إخراجها ، لقد كنت أحتضنُها وأنا أشدُّها شدًّا ، فأجد رأسَها يترنّح ، ثم يستريحُ على كَتِفِى !

هذه صورة لا تزال محفورةً فى أعماق مُخَيِّلتِى ، تتراءى لى بدقائقِها حيناً بعد حين !

قضينا يوماً أقْتمَ ، يغشاهُ سكونٌ ثقيل ، لم نتبادلْ فيه

الكلمات إلا لِمَاما . . . كلٌّ منا مُنطَوٍ على نفسِه يفكِّرُ في هذا الحادث ، وكأنه يفكِّرُ في الوقتِ نفسِه في مصيره هو أيضاً . . .

ولما جَنَّ الليل ، أعْدَدْتُ فراشي بجوار فراشِ « الشيخ عاد » فلم أعد أحتمل النومَ في الغارِ وحدى . . . ومن حُسْنِ حظى أنى رحتُ في نومٍ طويلِ المدى ، عوَّضْتُ به كثيراً من متاعبي وآلامى .

* * *

وفي الصباح قلتُ لـ « الشيخ عاد » وكنتُ جالساً وإياه بجوار النَّبْع :

أيَّةُ بئر هاته التي تَرَدَّى فيهـا المسكينُ مجاعص يرحمهُ الله !

— لم يكن مَصْرَعُه في بئر ، إنما هو مكانٌ فسيح لم أعرفْ أين يبدأ ولا أينَ ينتهي . . . . عَثَرْتُ فيه على بقايا عظام .

— عظام ؟

— أجل ، عظام بشريَّة نَخِرَة !

— أمثوى قتلةٍ أشرار هو ؟

— . . . كلما طالت إقامتُنا فى هذا القصر ، ازدادت أسرارُه تعقيداً و تعمية !

ومرت أمامنا « مس إيڤانس » تحملُ عصيرَ الفاكهة للجريح ! فحيتنا بابتسامةٍ خفيفة ، فأجبْناها برفعِ اليدِ إلى الرأس .

ثم أستأثرَ بنا صمتٌ طويل . . .

ووقعت عينى على اسم « صفاءَ » المحفورِ على صخرة النَّبْع ، وهو يَرْتعِشُ تحتَ الماء ، فقلتُ لجليسى :

« أما زالَ يدعُوها صفاء ؟ »

فرفع « الشيخ عاد » رأسه ، وقال :

كلا !

— ولِمَ !

— إنَ وطأةَ الُجنّى قد خفّتْ عن ذِى قبل .

— إذاً لقد كان يهْذِى . . .

— يلوح لى أن كلّ ما قاله لم يكنْ هذياناً ، فالحمى لم تُطلقْ لسانَه بأكاذيبَ ولا بأوهام ، وإن كانت قد خلَطَت فى رأسه المشاهد ، وَمَزَجتْ بين الخيال والحقيقة ، فتراءت له « مس إيڤانس » كأنها « صفاءُ » ذاتها تُبْعَثُ ثانياً .

— ماذا تَعْنى بذلك ؟

— لقد بدأ الآنَ يعتقد أن « مس إيڤانس » و « صفاء » شخصان متغايران .

— أيكونُ بين كليهما تَشَابهٌ ؟

— أُرجّح أن « مس إيڤانس » صورةٌ ناطقة لـ « صفاء » تلك التى أَحبّها فيما مضى . . .

وعاوَدَنا الصمتُ .

رأينا « مس إيڤانس » راجعةً تَتَّجه صوبَنا ، وجاءت فجلست إلينا ، وقالت :

لقد رَوَى لىَ الساعةَ شيئاً من قصّة غرامه !

— أهُناكَ اختلافٌ بين ما رواه ، وبين ما نعرفه من هذه القصّةِ ؟

— اختلافٌ قليل فى التفاصيل . أما القصة فى جوهرها فهى كما عرفناها من قبلُ .

فالتفت إلى « الشيخ عاد » وقال :

إذاً فهو « يوسف الصافى » بعينه ، وإلا فكيف اتفقت روايتُه والروايةُ التى يتناقلُها الناسُ عنه ؟

فقلت وأنا أداعبُ الرمل :

« وكيف تفَسِّرُ إذاً قصةَ انتحاره ؟ »

فقالت « مس إيڤانس » :

إن وجودَه يَنفيها . . وقد سَخِرَ منها حين قصَصْتها عليه .

— وماذا قال إذاً ؟

فأخذتْ « مس إيڤانس » تُصْلِحُ خصائلَ شعرها السَّبْطِ المتَموِّج . . . ثم قالت :

« لقد روى لى كيف أن أبا حبيبته رفض أن يُزَوِّجَه إيَّاها ، وآثر أن يزوِّجها غَيْرَه . فاعتزم أن يقضِىَ على نفسه وعلى حبيبته فى وقتٍ واحد . وكاشَفَها بالأمر ، فرضِيَتْ مغتَبِطة . واختار ليلةَ زِفافها إلى غريمِه موعداً لإنفاذ عَزْمه . وجاء الحفلةَ مُتَنَكِّراً ، ودخلَ عليها فى مِنَصَّتِها ، فوجدها واقفةً بين صُوَيْحباتها ، فأطلق عليها رَصاصة من غدارَته ، فسقطتْ على الأرض من ساعتها . . . »

وسكتت « مس إيڤانس » وعيوننا متعلقةٌ بها . ولما طال صمتُها ، قلت :

وانتحاره ؟

— لقد قال لى ، وقد أسبَلَ جفنيْه النَّدِيَيْن بالدموع :
« ولما أردت أن أرفع الغدَّارةَ إلى رأسى لأُطلقها ، لم تطاوعنى يدى ، وفى لمْحِ البَصر توَاريت . . . كيفَ ؟ . . . لا أدرى ! » ثم انخرطَ فى البكاء ، فأشفقتُ عليه من الكلام ، ورجوت منه أن يهدأ .

وانصرمتْ أيامٌ أُخر ، وكنت ما أزالُ آخذاً بخطَّتى السلبية نحو الجريح ، فلم أذهبْ لزيارته ، وتحاشيتُ التحدث فى أمره مع « مس إيفانس » إلا إذا اقتضتْ ذلك الضرورةُ القُصْوَى .

واعترانى انقباض ملازم ، فلا أذكر أن شفتىَّ قد تحركتا بابتسامة ، ولا انبسطتْ أساريرى مرةً واحدة فى إشراق . فكنتُ أقضى اليوم ساهما مطرقاً ، أقطعُ الساحة جيئةً وذَهاباً . فإذا مَللتُ السَّير فى هذه الساحة ، دخلت فى الحديقة أجوسُ خلالَ خمائلهـا وأدغالهـا . وكثيراً ما لبثتُ وقتاً أمام قبر « مجاعص » أفكر فيه ، وأستعيدُ بالذكرَى ما مرَّ بنا من الحوادث معه !

وكانت « مس إيفانس » تمرُّ بى ، وأنا فى الساحة أقطعُها بخُطواتى الثابتة المملولة ، فتنظرُ إلىَّ بعينيْها الصافيتيْن ، ثم

تبعث إلىَّ بابتسامتها الخفيفة ، ابتسامة يكسوها الشجنُ ويخالطها التحسّر ، فأتقبلها كما يتقبل الفقير المعدم الصدقة بعد صبر وحرمان.

وقدِمَتْ علىَّ مرةً وأنا فى الساحة أحدّق فى كلمة « صفاء » المحفورةِ فى الحجر بخطٍّ كبير . . . فربَّتتْ كتفى ، وقالتْ وهى تنظر إلى يدَيْها :

« لن تطولَ إقامتُنا فى هذا الموْطِن ! »

فحدقت فيها ، وقلتُ مهتاجاً :

أحقاً ؟ ومتى اعتزمتِ الرحيل ؟

— بعد بضعة أيام ، ريثما يسترد الجريحُ قواه .

وسكتتْ ، وسكتُّ أنا أيضاً . . . وما فتِئتْ هى تنظر إلى يديها ، تتأمّلهما تأمُّلا طويلا . ثم قالت ، وقد تغيَّر صوتها :

أشعر بأنى مسئولة عن كلّ ما حلَّ بكم من مصائبَ وآلام !

— كيف ؟ لقد جئنا بمحض اختيارنا ! . . .

— لولم أحضُر إلى الفندق ، لما كان من هذا شىء !

— كلُّ شىء رهنُ الأحوالِ والأقدار . . . ثِقى بذلك كل الثقة .

— لقد سبَّبتُ لكم متاعبَ كنتم فى غنًى عنها .

— الحق يا « مس إيفانس » أنه لولا مصرع « مجاعص » لما أسفت على شيء مما نالني من جهد . ولكنّ أمثالَ هذه المغامرة لا تمرُّ بسلام ، فهي تخلّف وراءها ذكرى فاجعة .

— لم أكنْ أرضى أن تكونَ المصيبة في سوايَ ، خلالَ هذه المغامرة الجنونيّة .

فقلت في تلهف :

« أمتأسفةٌ أنتِ على حضورِك ؟ »

فنظرتْ إلى كلمةِ « صفاءَ » أمامها على الحائط ، وصمتَت فترةً ، ثم أجابت :

« كن على يقين أنه لن يَطولَ أمدُ إقامتكَ هنا ! »

وسارتْ بخُطاً خفافٍ، وغاب في مُعاطفِ الحديقة شبحُها .

* * *

وتلاحقتِ الأيام . . .

وبينما كنت مرة في الساحة أذرَعها بخطواتي التي يتوضح فيها المللُ والسآمة ، إذ رأيت « يوسف الصافي » يخرُج من الحديقةِ متوكئاً على ذراع « الشيخ عاد » تسير بجانبه « مس إيفانس » . . . وكان « يوسف » يخطو متمهّلا أشدَّ التمهل ،

وقد هزل جسمُه ، وشحب وجهُه ، فزال شيء كثير من معالم خشونته .

وألفيته يتقدم نحوى ، تلتمع على فمه ابتسامة وديعة ، فوجدتُ نفسى أتقدمُ نحوَه . ولما التقينا مددتُ له يدى ، فأطبقَ عليها يديه ، وضغطها فى كثير من التلطف ، وقد انبسطت ابتسامتهُ ، وبرقت عيناه بنظرة مودةٍ ووفاء ، وقال مداعباً فى صوتٍ ليّنِ النبرات :

« أهلا وسهلاً بقاتلى ! »

فهمست قائلا :

لم يكنْ يقعُ ببالنا أن « يوسف الصافى » يسكنُ قصره . . . كنا نظنّ . . .

— كنتم تظنون أن هناك وحشاً أو قاطعَ طريقٍ يريد اغتيالكم . . . لم أحسِنْ ضيافتكم . . . اعذرونى !

وسرنا حتى النبع ، فرغبَ « يوسف » أن يستريحَ ، فجلسنا حولَ الماء .

يا لله ! بون شاسع بين « يوسف الصافى » الذى أراه الساعة أمامى ، ذلك الذى يفيضُ رقة ووداعة ، وبين ذلك الرجلِ الذى تلقانى من أيام كنمرٍ وحشيّ يتحفزُ لافتراسى !

ووقعت عيناى على « مس إيڤانس » وقد ظلت تنظر إلى أناملها ، ووجهها مكسو بامتقاع خفيف . فطأطأت رأسى ، وقد شاعت على وجهى ابتسامة هادئة كابتسامة المهزوم وقد بدأ يستسلم لهزيمته ، ويستلذ آلامها .

وطرق سمعى صوت « الشيخ عاد » يقول لـ « يوسف » :

« ألم يَحِن الوقت لنعلمَ منك القصةَ بأكملها ؟

فقال « يوسف » وهو يداعب لحيتَه بأنامله مبتسما :

« إذا أذِنتم لى رويتها لكم الساعةَ ! »

فقال « الشيخ عاد » :

« كلنا آذان صاغية . . . »

° ° °

فقال « يوسف » :

« أنتم تعلمونَ كيف دخلتُ على صفاءَ فى حفل عرسها ، وكيف أصبتُها بغدَّارتى ، فصرعتُها . . . »

وتمهل « يوسف » قليلا ، وهو ينظر فيما أمامه نظرات تائه شريد . ثم أرخى جفنيه قليلا ، وتابع قوله :

« ولما أردت رَفعَ الغدَّارة إلى صدرى ، لم تطاوعنى يداى .

لماذا ؟ لا أدرى ! . . . وفى خطفةِ البرق تواريْت ، وجعلتُ أعدُو ، وأنا لا أعرف لى وِجْهة ، أعدو وأعدو بلا توَقُّف ، فهل كان يتأثرُنى أحد ؟ وهل صاح بى أحد ؟ لا عِلمَ لى بشى ! . . . لمَ أكنْ أرى قبالتى إلا طيفها مُلقًى على الأرض ، والدم يَتفجَّر من صدرها ، وعيناها مفتوحتان تنظران إلىَّ فى دهشة وعجب ، تسألانى : لِمَ لمْ أُتمَّ الشطرَ الآخرَ مما اتفقنا عليه ؟

وكان السكون حولى فى صَمْتٍ مُروِّع ، فليس فى مِسمَعِى إلا أنينها المتقطع الضعيف . . . يا لله ! ساعات وساعات قضيتها وأنا أعدو كالوحش النَّفور المثخَنِ بالجراح ، يطلب له مخبأ يَقيه عَيْنَ الصائد !

واستلقيت على الأرض بغتةً ، فاقدَ الوعى . ولما فتحت عينى وجدت نفسى فى بقعَةٍ قاحلة ، أشبَه بالصحراء ، يُخيِّم فيها السكون ، وتُطبق عليها غياهب السَّواد . . . جلست أفكِّر طويلا ، ثم انفجرت أبكى وأشهَق ، ثم أصرُخ من صميم قلبى أطلب من الناس أن يَقبِضوا علىَّ يسومونى سوءَ العذاب .

ولما انتهت تلك الأزمة ، قمت أجُرُّ رجليَّ واليأسُ يعشش في نفسي ، وتأنيب الضمير يمزقُ قلبي شرَّ ممزَّق . . . سرت على غير هدى ، وقد أزمعتُ أن أقدِّمَ نفسي لرجال الشرطة ، وأخلِّصَ ضميري من آلامه الشِّداد .

وما زلت أسير ، والعمران مستخفٍ عني ، لا أرى له من أثر ، والصحراءُ تنبسط أمامي لا أعرفُ لها نهاية . . . ولاح ضوءُ الفجر في عُرْضِ الأفق ، فتريثتُ طويلا أُجيل فيه النظر ، وصحتِ الشمسُ تسطع بنورها القويّ ، فسرَّحتُ بصري فيما حولي ، فلم أجد إلا رمالا مبسوطة وحجارةً مبعثرة ، وتلالاً قائمةً هنا وهنالك . . . وبدأت أتعرَّفُ أين يقع مكاني من الوادي ، فعلمته على وجه التقريب .

وتصوَّرَ لي في تلك اللحظةِ أني أسمع صوتها ، فقفزتُ أطلب الخلاص ، وظللتُ أجري ، ولا أجسُر على الالتفات خلفي ، حتى عييتُ ، وانقطعت أنفاسي ، فارتميتُ على الأرض مختنقا خائرَ القُوَى . . .

وترامت الأيام ، وأنا أهيمُ في شعَاب هذه البقاع المهجورة ، مسلوبَ الفكر ، موزَّع الإرادة ، لا أدري ماذا أفعل ؟ فتارة

أجدُ بى مدفوعاً بعامل قوىّ ، لا قِبَلَ لى بدَفْعه ، لأقتنصَ من حياتى بأيَّة وسيلة ، وطوراً يمتلكُنى جُبانٌ غريبٌ ، فأتهمنَ بالخوف من كلّ شىء : من أشخاص أتوَهّمُهم مُقبِلينَ يريدون القبضَ علىّ ، من التلال التى كانت تحيطُ بى كأنها سجونٌ مُطبِقَةٌ ضيقة ، من الصخور التى كنت أتخيَّلُها آلات قتل وإهلاك مختلفةَ الأشكال تتجهَمُ لى . . . كنت أخاف من كل شىء ، حتى من نفسى ، فكان يرتسمُ فى خاطرى أن شخصاً يتقمَّص جُثمانى ، وسينسَلِخُ عنى ، فى يدِه غَدَّارتى المتمردة ، يصوِّبُها إلى قلبى .

وعندما يُخَيِّم الليل ، تتراءى لى « صفاء » خطيبَتى ، وهى تنظُرُ إلىَّ فى دهشة وحيرة ، بعَيْنيها الشاخصتَيْن ، تسائلنى : لماذا لم أتمَّ الشَّطْرَ الآخرَ مما اتفقنا عليه ؟ فأقضى ليلتى مُسَهَّداً ، لا يستقرُّ بى قرار ، أفتِّشُ عن مخبأ يُنجِينى من نظراتها . . ومن أين ذلك لى ، وعيونُها دائماً أمامى ، تُلاحِظُنى من حيثما أتلفَّت ؟

واستأنفتُ سَيرى ثانياً . . وتخيَّرتُ لوِجهتى ناحيةَ الشَّمال ، ناحية الشمال دائماً !

وكنت أقتات بالأعشاب والبذور ، وأرتوى من المناقع التى كان يتجمع فيها ماء المطر . وإذا لمحت قرية من بعيد ، ابتعدت عنها ، حتى تغرب عن عينى !

وكرت الأيام . . .

وصادفتنى فى الطريق بركة ماء شهدت فيها وجهى ، فكدت أصعق من هول ما وضح لى : وجه رجل هرم تتعرج فيه التجاعيد ، له لحية كثة ، ورأس قد غزر شعره واستطال وغطاه المشيب . . . لقد استحال وجه « يوسف الصافى » سحنة من سحن الدراويش ، ممن نقرأ عنهم فى كتب الأولين . . . ومكثت وقتاً أحدق فى وجهى المتخايل على صفحة الماء ، ثم انطلقت أضحك طويلا !

وبدأت أتردد على بعض القرى ، أطلب الكفاف من الرزق ، فلا يكاد الناس يتجمعون حولى ، حتى تبلغ بى ثورة النفس إلى الشتم والسباب ، وأفر ضاربا فى فجاج الأرض .. وقد أسأل شخصاً أن يناولنى قليلا من الطعام ، فإذا ما أتى به نظرت إليه نظرة شزراء ، ولويت عنه وجهى ، وتركته يقلب فى نظراً حائراً ، وهو يغمغم فى تحسر :

مجنون ! . . . مجنون ! . . .

وعلى الرَّغْم من هذه المعاملة الشاذَّة التى لقيتُ الناسَ بها ، كانوا يغمرونَنى بإشفاقهم وإحساناتهم ، إذ حَسِبُونى وليًّا من أولياء الله الصالحين ، أو مجنونا تاعساً يجب له الرِّثَاء !

وكنت أتخيَّرُ الأمكنةَ المنعزلة ، لأقضىَ وقتاً أتأمَّلُ وأفكر . . . ولم يعُدْ للرُّعْبِ مكانٌ من قلبى ، وأخذتُ أنظر إلى جريمةِ القَتْلِ التى ارتكبتُها نظرةً هادئة . وأصبحتْ تتراءى لى « صفاءُ » ، وهى مُسْبَلَةُ الأجفان ، يحملُ وجهُها طابَعَ اللُّطْفِ والوَدَاعة !

وتمكَّن منى إيثارُ الوَحْدة ، والاستغراق فى التأمُّل . ألسنا كلنا مسيَّرِين فى هذه الدنيا ، كلُّ شىء يسير وَفْقَ الأقدار ، فهى التى تحكم إرادتَنا . . . ما نحن إلا يدُها التى تَضْرِب ، أو على الأصح صدرُها الذى يَتَلَقَّى الضَّرَبات !

وكنت دائما أسير نحو الشَّمال . ولما اقتربتُ من بلدة « بعنتاب » تذكرتُ أن لنا قصراً مجهولا فى تلك الجهة ، فامتلأتْ نفسى غِبْطَة ، وما زلتُ أفتِّش عنه جاهداً ، حتى تعرفتُ عليه بعد لأْى ، واتخذت على الفور طريقى إليه .

وهأنذا كما تَرَوْنَنى فيه ! »

فقالت « مس إيڤانس » وعينُها رانيةٌ « إلى يوسف » :

وهل بقيتَ فيه حتى اليومَ لم تبرَحْه ؟

— لم أبرحْه قطّ ، ولن أبرَحه ما حَييتُ ، لقد أقسمتُ على ذلك ، وسأبَرُّ بقسمى . . .

— وكيف كانت حياتُك فى هذا المكانِ المُنْعزِلِ ؟

— عشتُ هذه الأعوامَ الخمسةَ والعشرينَ قريرَ العين بوحدتى ، خالياً بنفسى ، أناجى شجونى ، وأتأمّل الطبيعةَ حولى . فإذا نالنى هَمٌّ أو أصابنى ضِيق ، لجأت إلى صَلَواتى متقرّباً إلى رَبّى ، فسَرْعانَ ما يُعاوِدنى صَفائىَ المنشُود !

فقلت :

« هذا حسن . ولكنه على أيّةِ حالٍ نَفْىٌ مُؤَبَّد ! »

فأجاب :

« أتعُدُّ هذا نفياً ؟ . . . ألا إنى أعُدُّهُ الخلاصَ من حياةٍ زائفة ! »

فقالت « مس إيڤانس » فى نَشْوَة :

« أنت الرجلُ الوحيدُ الذى فَهِمَ سِرَّ هذا الوجود . . . »

وسكتنا جميعاً ، وأذانُنا سكونٌ شامل . . .

* * *

عشنا مع « يوسف الصافى » أياماً أخرَ عيشةً راضيةً هانئةً خالصة من المفاجآت .

كانت صحة « يوسف » تتحسّن يوماً بعد يوم ، وأصبح هادئَ الطبع ، دَمِثَ الخلق . وقد توطدتْ علاقتى به ، فتوشّجتْ بينى وبينه أُلْفَةٌ وثيقة العُرا ، وطابتْ لى عِشْرتُه ، وساغَ لى حديثه . واستطعت فى هذه الأيام التالية أن أنعمَ بتلك الحياة الفِطْريّة الساذَجة التى يَحْيَاها .

أما علاقةُ « يوسف » بـ « مس إيڤانس » فكانت علاقة احترام وودٍّ مشبَعةً بعاطفةٍ دفينةٍ تَنِمّ عنها فى بعضِ الأحيانِ وَمَضات عينيه أو خَلَجَات وجهه . . . ولم يَعدْ يسمّيها « صفاء » كما كان يفعل وهو محموم ، بل كان يتحاشى دائماً أن يَسبِقَ لسانه بذكرِ هذا الاسمِ أمامنا .

فأما « مس إيڤانس » فقد لحِقَها تغيُّرٌ جديد ، فلزِمَتْ الصمتَ ، إلا فيما تقضى به الضّرورة الحافزة . وكانت تسمع فى شَغَف شديد لما يَصِف به « يوسف الصافى » مَنهَجَ حياته

فى هذا المكان ، وكيف قضى الأعوام الطوالَ حبيساً بين هذه الجدران الشاهقة ، أو بالأحرى طليقاً بين أحضان الطبيعة . فإذا ما انتهىَ من حديثه ، انتبذتْ ركناً بعيداً ، وجلست تحَلم ، وقد وَضحَ على وجهها إشراقٌ عجيب !

وبينما كنت ذاتَ يوم جالساً إلى « الشيخ عاد » عند النبع ، نتبادل بعض الكلمات التافهة ، وعقولنا شاردةٌ فى ميادينَ شتى ، إذ أقبلت علينا « مس إيڤانس » فرفعنا رأسينا إليها ، فإذا هى تقول فى اهتياج ، ونظراتها تنطق بعزمٍ وطيد :

« أصبحت لا أطيق المُكث هنا أكثرَ مما مكثت ! »

فقلت على الفور :

« ماذا ؟ هل أزمَعْت السَّفَر ! »

فقالت فى لهجتها السابقة :

« إن مهمتَنا قد انتهت . . . ألم نَكتشِف القصرَ ، ونعرفْ سِرّه الخفىّ ؟ فلأىّ غرض نَبقَى بعد ؟ إن هذه الأسوارَ العالية ترهق أعصابى بمنظرِها الموحِش . . . أشعر بضيقٍ شديد . . . »

وظهر « يوسف الصافى » يتوكأُ على عصاه ، ودنا منا وعلى فمه ابتسامة رقيقة ، وقال :

« ماذا ؟ أراكم تتجادلون . . . فَفِيمَ هذا ؟ »

فقلت على الأثر :

« لقد اعتزمتْ « مس إيفانس » الرحيل . . . »

فواجهها « يوسف » بنظرة استفسار ودهش ، وقال :

« لاشك أنكِ تمزَحين يا سيدتى ! »

فخَفَضَت من بصرها ، وقالتْ فى صوتٍ خافت :

« أكنتَ تظنُّ ، يا صديقى ، أننا سنقيمُ هنا إلى الأبد ؟ »

فقال « يوسف » :

« كلا . . . أنا عَليم بحاجتكم إلى حياة الحَضَر ، ولكن لم يمضِ عليكم من الأيام هنا إلا النَّزْر اليسير . . . لا ريب أن هذا المكانَ العابِسَ قد بدأ يضَايقكم ! »

فهمَّت « مس إيفانس » أن تتكلم ، ولكنها عادت فأطبقتْ شفَتيها ، وأسبلت جفنَيهَا . . .

وأطرق « الشيخ عاد » وراح يخطّ بعصاهُ على الأرضِ بعضَ الرسوم الساذجة ، وقال لـ « يوسف » :

« لقد بدأنا ، يا صديقى ، نستشعِر ثِقَل ضِيافتِنا عليك ! »

فصاح « يوسف » وعيناه تلمعان :

« أيجوز لك أن تتفوه بذلك أمامى يا شيخ عاد ؟ »

فقال الشيخ مبتسما :

« لو كان الأمر مقصوراً علينا ، نحن الشرقيين ، لما وجدنا بأساً فى إطالة أمدِ الضيافة . ولكن هذه السيدة ! . . . إنها لا تستطيع بعقليَّتها الغربيَّة أن تفهَمَ أسلوبَ الضيافة كما نفهمه نحن . . . . »

فالتفت « يوسف » إلى « مس إيڤانس » وقال لها فى حرارة :

« وإذا طلبت منك فى رجاء واستعطاف أن تطيلى أمدَ البقاءِ معى ، فهل ترفضين ؟ »

فصمتت « مس إيڤانس » وقتاً ، ثم هَيْنَمتْ وعينها تسبَح فيما أمامها :

« وَدِدت لو استطعت ! . . . ولكن . . . . »

ثم عادت إلى صمتها القلِق .

وشاركناها جميعاً فى الصمت ، فلم تنفرج شفاهنا عن حرف .

وكان « الشيخ عاد » لا يزال يخطُّ على الأرض رسومَه الساذَجة .

وبعد حين ، رفع رأسه ، وقال لـ« يوسف » :

« ما قولك ، يا سيد يوسف ، فى أننى جائع ؟ »

ثم نظر إلى « مس إيفانس » وقال:

« وأنت ، يا سيدتى ، ألا توافقيننى على هذا القول ؟ »

فابتسمت ابتسامة خفيفة ، وقالت :

« إذا حضر شىء من الطعام ، فلن أتأخرَ عن مشاركتِكم فيه ! »

فاستبانت على وجه « يوسف » إشراقة عابرة . وقال لها :

« إذاً هيّا . . . لقد أعددتُ لكم اليومَ طعاماً صنِعَ على نحوٍ جديد ! »

* * *

وأخيراً آن يوم الرحيل . . .

فنهضنا من فراشنا مبكّرين ، وحزمنا الأمتعة ، وتزودنا بما يكفينا من المَئونة . .

ثم قمنا إلى قبرِ « مجاعص » فقرأنا الفاتحة ، ونثرنا الزّهرَ !

ورافقَنا « يوسف الصافى » فاخترقنا سراديب القصر ودروبه ، والصمت الرازح يحيط بنا ، حتى وصلنَا إلى باب الخروج ، حيث الثّغرةَ التى دَخلنَا منها .

وهنا رَغبْنا إلى « يوسف » فى أن يرجع ، فتمت مراسم

الوَدَاع فى عبارات رقيقة . وعجبتُ كيف جاء توديع « مس إيفانس » لساكن القصر نائراً على غير ما كنت أنتظر !

وافترقنا . .

وسرنا فى الطريق الذى جئنا منه ، وكنا نلتفت خلفنا بين فترة وأخرى ، فنلمح « يوسف الصافى » واقفاً أمامَ مدخل القصر يراقبنا ويلوّح لنا بيده . تخيّل إلينا — ونحن نراه فى موقفه هذا ، وهو بملابسه وهيئته الفطريّة وَسْطَ ذلك المكان السحرىّ — أنه رجل من أهل الكهف خرج يَسْتَجْلى العالمَ بعد نوم مئات من الأعوام . . .

٥

وسرنا . . . وسرنا . . .

والصمت دائماً يلازمنا ، ثم بدأت و « الشيخ عاد » نتبادل بعضَ الكلمات ، فإذا بحديثنا تافه سخيف . أما « مس إيڤانس » فاستأثرَ بها الوجوم المكفهرّ ، لا تبدؤنا بحديث ، ولا تشترك معنا فى نقاش . . . وأقلقتنى حالتها ، وأسررت رَأيى لرفيق ، فلم يُعِر كلامى أىّ اهتمام .

وواصلنا سَيْرنا بضعَ ساعات ، ثم اخترنا مكاناً نستَجِمُّ فيه . . . ورأيت « مس إيڤانس » تخرج من صمتها ، فقالت وعيونها تلتمع بشعاع حائر مضطرب :

« ما أتفهَ الحياةَ يقضيها الإنسان فى عزلة نائية ! لا أدرى كيف تحتمل أعصاب المرء مثل هذا السجن القاسى ؟ »

حدّقتُ فى وجهها متعجّباً ، ولم أنطقْ . . .

أما الشيخ فراح يداعب سُبْحَتَه ، ويتفحّص حبّاتِها ،

ثم قال :

« إن الأمورَ نسبيةٌ فى هذا الوجود . . . فما يعتبرُه أحدُنا تافهاً يعتبره الآخرُ مجداً من الأمجاد ، وآيةً فى كتابِ البطولة . . . »

فقالت :

« والحقيقة ؟ . . . أينَ هِي إذاً ؟ »

فقال :

« صدقينى ، ياسيدتى . . . إن الحقيقةَ ضائعةٌ فى هذا الوجود ! »

فقلتُ على الأثر :

« اسمح لى ، ياصديقى ، أن أصارحَكَ بأن هذه الأقوالَ من مغالَطَاتِ الفلسفة . . . « الحقيقة » هى أن يحيا الإنسانُ فى هذه الدنيا وَفقَ قوانينها الطبيعية . . . فهل العزلة ، والنِّفارُ من الناس ، وإيثارُ سجنٍ ناء عن المجتمع ، يصح أن يعَدَّ من الأمور الطبيعية ؟ »

فأسرعت « مس إيفانس » تقولُ فى حماسة :

إنى أسمى مثلَ هذه العزلةِ مرضاً اجتماعيا . . . لكل امرىء

فى الحياة رسالة يجبُ أن يؤديها لبني جنسهِ ، فإذا نَكَصَ على عقبَيْه ، عُدَّ ذلك فِرَاراً من المَيْدان . . . »

فقلتُ فى حماسة لا تقِلُّ عن حماستها :

« هذا الكلامُ هو عينُ العقل ! »

فابتسم « الشيخ عاد » ابتسامتَه الهادئة ، وأخذَ سُبْحَتَه ، وطفِقَ يَشَمُّها . ثم قال :

« ليس لى اعتراضٌ على هذا القول فى مُجْمَلِه . ولكن لاتنسَوْا أن لكل امرئٍ حقًّا فى أن يفسرَ قوانينَ الطبيعة على حَسَب مَنْطقِه ومُلاَبَسَات حياته . . . »

ولبثْنا يومين كاملين فى مَعَاطِفِ الطريق . . . ولاحظت أن « مس إيفانس » ماتستيقظ من نومها فى مَطْلَعِ الصبح ، حتى تخرجَ من الخيمة — أوما اصطلحنا على تسميته خَيْمَةً — وتقضِيَ وقتاً غيرَ قصيرٍ تطيل النظرَ إلى الجهة التى يقوم فيها قصرنا المسحور . . . فأراقبها خلسةً وأنا متعجِّبٌ من أمرها .

بيد أنى لم أراجعْها فى هذا الأمر بتصريح أو تلميح .

وقمت مرةً مع « الشيخ عاد » نبحث عن وَقودٍ لإنضاجِ غدَائِنا ، وما كان أشدَّ دهشَتنا إذْ رأينا أربع بِغالٍ تسْرَح

فى الجبل ، تقتات بأعشابه اليابسة ، فاقتربنا منها ولم نجد صعوبة فى طلبها واقتيادها .

وصرختُ مشيراً إلى بغلتين منها :

« إنهما البغلتان اللتان تركناهما أثناء قدومنا ، ما فى ذلك ريب . . . ! »

فأخذ « الشيخ عاد » يربت ظهريهما ويتفحصهما ، ثم قال : يجوز !

— المشابهة بينهما وبين بغلتينا واضحة ، لا تحتاج إلى دليل . انظرْ إليهما ، أليستا محجلتين ؟

— صحيح ، هما محجلتان . . . ولكن ليس هذا دليلا قاطعاً . . . لو كان المرحوم « مجاعص » بيننا ، لأنقذنا من هذه الحيرة بالخبر اليقين !

. . . واخترنا البغلتين ، لحاجتنا إليهما فى الركوب ، إذْ كان نشاطنا فى السير مترجلين قد أدركه الوهن والفتور .

وأشعلنا النار ، وبدأنا — أنا والشيخ — نهيئ طعامنا . . وبقينا صامتين لحظة . ثم قلت لـ « الشيخ عاد » :

أتظنُّ أن شخصين قد يتشابهان مشابهةً تامة ، حتى ليختلطَ على العين الفاحصة أمرهما ، فلا تستطيعَ التفريقَ بينهما ؟

— مؤكَّد !

— إذا اختلطَ على العين ذلك ، فهل يختلط على القلب أيضاً ؟

— أفصِحْ عمّا تريد . . .

— لنَفرِضْ أنك أحببتَ فتاة ، ثم فرَّقتْ بينكما شجون الحياة ، وبعد انصرام عَشَرَة أعوام مثلاً لقيتَكَ فتاةٌ أخرى تُشابه الأولى مشابهةً تامة ، فهل تشعر لها بمثلِ الحبِّ الذى كنتَ تشعر به للأولى ؟

فأطرق الشيخ قليلا ، ثم قال :

من العسير أن نضع لذلك قانوناً عامًّا لا يتخلَّف . . . فلكل امرئٍ مِزَاجٌ خاص ، وشعور مستقل ، يختلف قليلا أو كثيراً عن مزاج غيره وشعوره . . .

— أؤكد لك أن الناسَ كلهم مزاج واحد وشعور واحد . إن طبيعتَنَا البشرية تسير وَفقَ قانونٍ واحد !

— وما هو هذا القانون ؟

— هو أن القلبَ لا يخطىء خَطَأ العين ! فعواطفك لا

تنجذب إلى فتاةٍ لمجرد أنها تشابه من أحببتَهَا فى سالفِ حياتِك !

ورأينا « مس إيڤانس » آتيةً إلينا ، فانهمكنا فى إعداد الطعام وقد غَـيَّرْنا مَجْرىَ الحديث . . .

* * *

وفى اليوم الثالث صحوتُ من نعاسِى ، واجتمعت بـ « الشيخ عاد » لنتناول الفَطور ، فلم أجد « مس إيڤانس » فسألته عنها فلم يجِبْنى . . . بل اقتصر على ابتسامةٍ هادئة مديدة ، فيها معنى الاستسلام والاستخفافِ بكلّ شىء . فلم أفهم ما يَعْنيه ، فسألته :

« أتناولتْ فَطورَها منفردةً ؟ »

فناولَنى بضعَ تينَاتٍ حافَّة ، وقال :

ألم تكنْ تَتَوَقَّع لها هذا الأمرَ ؟

— أىّ أمرٍ تَعْنِى ؟

— لقد ذهبتْ . . .

— ذهبت ! . . . إلى أين ؟

فجذَبنِى من يدى ، وخطوْنا بضعَ خطوات ، ثم وقف

وهو ينظر فى اتجـــاهِ الناحيةِ القائم فيها القصر ، وأشار إليها وهو يقول :

« هناكَ . . . ألمْ تَـفهَمْ ؟ »

ووقفتُ جَـزِعاً ، وقد فَـطَـنْـت إلى ما يَـعْنيه .

ثمَ رجَـعْنا إلى مكانِنا ، وتابعنا أكلَـنا صامتَـيْن !

كليوباتره فى خان الخليلى

قصة الصراع الدائم بين عالم الحقيقة وعالم المثال

حواء الخالدة

قصة المرأة منذ الأزل وقصتها إلى الأبد

شفاه غليظة

مجموعة من أقاصيص مصرية

بنت الشيطان

قصة الخير والشر فى طبيعة البشر

فن القصص

فصول جامعة لدقائق الفن القصصى

(طبعة ثانية مزيدة)

